روايات عالمية للجيب 78

تايبى



تأليـــف : هيرمـان ملفيـل
ترجمة وإعداد : د. أحمد خالد توفيق

المـؤلف



هيرمان ملفيل أديب أمريكى ارتبط اسمه بالبحر ، وبصفة خاصة بقصته الأشهر (موبى ديك MOBY-DICK) التى صدرت عام 1851 ، والتى قيل أنها أعظم رواية فى الأدب الأمريكى على الإطلاق ، وقد ترجمناها فى هذه السلسلة فى العدد 52 ، وإن اضطررنا لتلخيصها بعنف لأنها بالغة الطول ..

الحقيقة أن هناك ثلاثة كتاب أمريكيين ارتبطوا بالبحر بشدة : الأول هو (ملفيل Herman Melville) والثانى هو (هيمنجواى Hemingway) صاحب (العجوز والبحر) الغنية عن أى تعريف ، والثالث هو (بيتر بنشلى Benchley) الذى ارتبط اسمه بقصص (الأعماق) و(فكان) و(الجزيرة)(*).. الحقيقة أن الثالث توغل فى البحر فعلاً ، وبلل قدميه فعلاً . ربما أكثر من أى كاتب آخر ،

(*) يلاحظ قراؤنا المخضرمون أننا قدمنا روايات (بنشلى) الثلاث فى هذه السلسلة .. و(فكان) اشتهرت باسم (الفك المفترس) .

لكنه كما نعلم اكتفى بالمغامرة المثيرة فى حد ذاتها .. بينما اهتم (هيمنجواى) و(ملفيل) بالنفس البشرية .. لقد ذهبا إلى البحر ليغوصا فى نفوس أبطالهما ..

لم يلق الكتاب ــ (موبى ديك) ــ نجاحًا إلا بعد ثلاثين عامًا من صدوره ، إلا أن القصة الأخرى الشهيرة لملفيل ، والتى كان اسمها (تايبى ــ 1846) لاقت نجاحًا كبيرًا وقت صدورها .

ولد (ملفيل) عام 1819 فى مدينة (نيويورك) لأسرة من التجار . أفلس والده وجن ومات كل هذا بينما كان (ملفيل) الصغير فى سن الثانية عشرة . وقد أصابته الحمى القرمزية فسببت ضعفًا دائمًا فى بصره . تنقل (ملفيل) فى عدة وظائف لكن نهمه للقراءة لم يتوقف قط . التحق بالبحرية الأمريكية وجاب العالم بهذه الطريقة . وقد تعرف أكلة لحوم البشر المعروفين باسم (تايبى Typee) أثناء عمله فى جزر (ماركيساس) ، وعنهم كتب رواية شهيرة جدًا هى التى نقابلها اليوم .

صدرت روايته (تايبى) فى بريطانيا أولاً ، ونالت قسطًا لا بأس به من النجاح ، ولكنها كالعادة ملخصة هنا بشكل لم أجسر عليه من قبل إلا فى رواية (موبى ديك) . بهذا أنت تذوق

ملفيل لكنك لم تشربه ، ولكن تقديمه حرفيًا عملية مرهقة للقارئ فعلاً ، ولن يصبر معظم القراء على قراءة رواية بهذا الطول المفرط والاستطراد الذى لا ينتهى . بعد هذا أصدر كتابه الثانى (أوموو ــ 1847) عن تجاربه فى جزر (بولينيزيا) . وعامة كان نجاح (ملفيل) فى بريطانيا أكبر من نجاحه فى وطنه .

عام 1847 تزوج وابتاع مزرعة فى (ماساتشوتستس) أطلق عليها اسم (رأس السهم) ليكون جار الأديب الأمريكى العظيم (ناثانييل هوثورن Hawthorne) ، وإلى حد ما يراهما دارسو الأدب الأمريكى ثنائيًا متقارب الأفكار والميول .

إلا أن قصص (ملفيل) التالية لم تلق نجاحًا ، وبدأت حالته المادية والصحية تتدهور .. ولم تتحسن أحواله المالية إلا حين وجد عملاً كمفتش فى الجمارك فى (نيويورك) . وتوفى عام 1891 فلم يلحظ أحد وفاته . اليوم اختلف الأمر تمامًا وصار كل دارس للغة الإنجليزية فى العالم يعرف جيدًا قـدر هذا الكاتب العظيم ، ومزرعته (رأس السهم) صارت متحفًا .

المهتمون بالاستزادة أو قراءة أعمال هذا الأديب بلغتها الأصلية يمكنهم البدء بهذا الموقع ؛ فهو يحوى كل شىء تقريبًا :

http : //www.melville.org

أهم أعمال ملفيل :

- تايبى 1846
- أومو 1847
- الرحلة الأولى لردبيرن 1849
- السترة البيضاء 1850
- موبى ديك (أو الحوت) 1851
- الكاتب العمومى بارتلبى 1853
- خزاف إسرائيل 1855

مقـدمـة

مرت ثلاث سنوات على الأحداث التى سجلناها فى هذا الكتاب . الفترة كلها ـ باستثناء الأشهر القليلة الأخيرة ـ قد أمضاها المؤلف ضائعًا فى المحيط الممتد . أن البحارة هم الوحيدون اليوم الذين يعيشون مغامرات حيـة ، ويرون أشياء تبـدو للجالسين فى بيوتهم جـوار النـار غريبة رومانسية . لكن ما نحكيه فى هـذا الكتـاب قـد أثار تعاطف رفاق البحر الذين كانوا مع المؤلف . وقد خطر له لهذا السبب أن قصته لن تفشل غالبًا فى جذب اهتمـام من هم أقـل اعتيادًا على حياة البحر ومغامراته .

سـوف نلاحـظ أنه يتكلم عـن النـاس المتفردين المثيرين للاهتمـام الذين وجـد نفسـه بينهـم ، وسـوف نلاحـظ أنه لا يناقش كثيـرًا أهدافهـم وأصـولهم ، لأن كتـاب الرحلات وسـط المجتمعات الهمجية يتعمقـون جـدًا فى هـذه النقاط .

أن المؤلف يدرك نقائص عمله أكثــر من أى واحــد آخر . لكن لو فهمنا الظروف الخاصة التى كان فيها فلسوف نغفر له نقاط النقص هذه .

فى القصص المنشورة يكون هناك اهتمام بالتواريخ ، لكن المؤلف لا يستطيع تذكر أيام الأسبوع التى دارت فيها الأحداث . ويأمل أن يتجاهل القارئ هذه التفاصيل .

حاولت أن أســتخدم طريقــة هجائية سهلة لنقــل الكلمــات البولينيزية إلى القارئ . وهذا عيب أساسى فى الأدب الذى يسرد عبارات من لغة المحيط الهادى .

هناك حقائق سوف يتم سردها ، وهناك استنتاجات سوف يتم استنباطها ولا يمكن تفاديها . وهناك درجة من الاستطراد لابد أن تحدث ، خاصة فيما يتعلق برأى العالم الغربى فى جزر الماركيز الذى تنامى مؤخرًا .

هنــاك أشــياء فى القصــة ستبدو غريبــة وغيــر مفهومة بالنسبة للقــارئ ، وهى قــد بدت كذلك بالنسبة للكاتب أثنــاء

المغامرة . وهو يترك لكل واحد أن يكون رأيه الخاص بصددها ، وهــو واثق مــن أن صدقه وصراحته سوف يجلبان له ثقة القــارئ .

1846

الفصـل الأول

ستة أشهر فى البحر !... نعم أيها القارئ .. ستة أشهر وأنا بعيد عن الأرض .. أبحر وراء حيتان العنبر تحت شمس خط الاستواء الحارقة .. فوقى السماء وتحتى البحر ولا شىء سوى هذا !

منـذ أسابيع نفـد ما لدينا من مؤن ، ولم تبق حبة بطاطا واحدة .. لقد زال ما لدينا من (يام) واختفت سباط الموز التى كانت تزين مقدمة السفينة . رحل البرتقال الجميل فلم يبق لدينا سوى بسكويت البحر واللحم المقدد . ماذا لديكم لتقولوه يا من تتعبون من رحلة 14 يومًا عبر الأطلنطى ، ويا من تلتهمون ثلاث وجبات ، وتجلسون فى قمرات مريحة من خشب الماهوجنى ، وتشربون الشامبانيا وتنامون عشر ساعات وتثرثرون .. ماذا تقولون عن رحلتنا التى طالت ستة أشهر ؟

لكم اشتقنا للمحة من العشب . لشمة من عبير الأرض الطينية .. أما من شىء طازج من حولنا ؟.. أما من شىء أخضر ؟ حتى

الخضرة المتعلقة بالأخشاب التى تستعملها كوقود قـد التهمها خنزير القبطان . وكـان هذا منـذ زمـن بعيـد لأن الخنزير نفســه قد تم التهامه . لم يبق لدينا سوى ديك واحد أضناه فقدان الرفاق واحدًا تلو آخر .. واشمأز من القمح العفن والماء الراكد .. لكن الطباخ أخبرنى أن مصير الديك البائس قد تحدد .. سوف تنتهى حياته على مائدة القبطان وسوف تدفن عظامه تحت تلك السترة ..

لم يكن فينا شخص قاس لدرجة أن يحب رؤية رأس الديك التعس يطير .. لكن البحارة تمنوا أن يلقى نهايته ، والسبب هو أنهم يؤمنون أن القبطان لن يعود لليابسة ما دام هناك لحم طازج على السفينة . أنا آسف أيها الديك بدرو .. لكن طالما أنت السبيل لانتهاء آلامنا فأنا أتمنى أن يذبحوك حالاً .. لأننى أتمنى رؤية الأرض من جديد ..

يا للسفينة العجوز البائسة !

منظرها يدل على ما تريده .. الطلاء على جوانبها حرقته الشمس وتشقق . انظر للعشب الذى تجـره خلفها . وانظر إلى

القشريات التى أحاطت بالمقدمة . وكلما ارتفعت مع الموج ترى النحاس الذى تفكك أو تداعى ..

يا للسفينة العجوز البائسة !

لستة أشهر لم تكف عن الحركة أو ترتح . لكن اصبرى أيتها الفتاة العجوز .. فأنا أتوق لأن أراك قرب الأرض السعيدة ، وتضعين مرساتك عند خليج أخضر ، وتبتعدين عن الريح العاصفة .

مـــرحى يا شـــباب !... لقـــد تقـــرر الأمـــر . الأســـبوع القـــادم سوف نتجـــه لجـــزر الماركيـــز .. كم مـــن أشـــياء تفـــوق الخيـــال يوحى بها هـــذا الاســـم . الفتيات الحسناوات . مآدب أكلـــة لحـــم البشـــر .. حقـــول جـــوز الهند .. شعاب مرجانية .. زعمـــاء موشـــومين .. ووديان تغطيها أشـــجار الخبز .. أصنام مخيفة عملاقة .. الطقـــوس الوثنيـــة والضحايا البشرية ..

هكذا كانت أفكر ونحن نتجه إلى الأرض ..

كنت أشعر بفضول شديد لأرى تلك الأرض التى وصفها قدماء البحارة . كانت الأرض التى ندنو منها مليئة بأسرار غامضة وعادات بربرية ، (برغم أنها من أوائل الاكتشافات الأوروبية فى البحـــار الجنوبية ، وقـــد زاروها أول مـــرة عام 1595) . فى طريق سفينة مندانا التى كانت تبحـــث عـــن مورد للذهب ، ظهرت هذه الجزر كأنها قطعة مـــن سحر . وحسب البحارة الأسبان أن أحلامهم تحققت . وبما أن الحملة كانت برعاية الماركيز دى مندوزا حاكم بيـــرو ، فقـــد أطلق على الجزر اسم جزر الماركيز .

منذ ذلك التاريخ ظلت الجزر لغزًا .. فقط كل خمسين عامًا يأتى مغامر ليعتدى على هذا الهدوء ، ويقاوم إغراء أن يزعم أن هذا اكتشاف جديد .

حتى كابتن كوك فى جولاته الواسعة ، لم يمس هذه السواحل .. وكل ما نعرفه عنها قليل جدًا .

فى الأعوام الماضية انغمست سفن أمريكية وبريطانية فى صيد الحيتان بالمحيط الهادى ، وبعضها رسا قرب هذه السواحل ،

لكن ركابها كانوا يخشون التعرض لسوء المصير إذا نزلوا إلى الأرض .. وكان القباطنة يمنعون بحارتهم من الاندماج مع الوطنيين بما يسمح بمعرفة عاداتهم .

يبدو أن البعثات البروستانتية يئست من انتزاع سكان هذه الجزر من الوثنية .

قبل زيارتى لجزر الماركيز بوقت قصير حدث شيء طريف يتعلق بهذه الجهود .

كان هناك إرسالى شجاع لم تفت فى عضده قصص فشل المحاولات السابقة فى استمالة المتوحشين ، وكان يؤمن بقدرة التأثير الأنثوى . لذا قدم لهؤلاء القوم زوجته الحسناء الشابة وهى أول امرأة بيضاء تزور سواحلهم .

راح الوطنيون ينظرون فى دهشة إلى هذه المعجزة وكادوا يعتبرونها إلهًا جديدًا . بعد فترة اعتادوا وجودها . وكان فضولهم قويًا لدرجة أنهم تطاولوا على السيدة بما يتجاوز حدود اللياقة ومزقوا أجزاء من ثيابها .

لما تيقنوا من جنسها لم تعد مقدسة بالنسبة لهم ، وصار تقديسهم لها احتقارًا .. فقد شعروا بأنهم خدعوا . جردوها من الثياب تمامًا لتتعلم أنها لا يمكن أن تستمر فى خداعها بلا عقاب .

لم تكن المرأة البائسة إنجيلية إلى حد تحمل هذا .. وأرغمت زوجها على التخلى عن مهمته وعلى أن يعودا إلى تاهيتى .

لكن ملكة الجزيرة نفسها لم تكن تخشى أن تعرض مفاتنها .. أنها زوجة مووانا ملك نوكوهيفا .

سيطر الفرنسيون على هذه الجزر بعض الوقت ، وقد حسبوا طرقهم فعالة . ذات مرة من أجل النظام ذبحوا مئة وخمسين من الوطنيين فى ويتهوو ..

فى عصر يوم مشرق جاء قارب مزخرف بشكل زائد نحو سفينتنا ، وعلى ظهره كان مووانا ومعه رجاله ، وقد رحبنا به كما يجدر باستقبال الملوك .. فأطلقنا المدافع وأحدثنا صخبًا .

هبط الضيوف على السلم فحياهم الكومودور وقــد نزع قبعته . كان الفرنسيون يراقبون مـــن سفنهم هــذا المشهد ويضحكون مستمتعين بالموقف . كـــان جلالة الملك يلبس ثيابًا عسكرية مبهرة مطرزة بالذهب .. على رأسه تاج عملاق . يلوح بريش نعام . لكن عاب منظره بقعة من الوشم فوق وجهه على نفس خط عينيه كأنه يلبس نظارة عملاقة ، وأثار هذا بعض مشاعر السخرية . لكن أغرب منظر كان منظر زوجته التى كانت تلبس قطعة مبهرجة لونها بنفسجى مخيطة بالحرير الأصفر .. والثوب قصير جدًا يكشف قدميها الحافيتين والوشم على ساقيها . وعلى رأسها عمامة بنفسجية مزدانة بالريش .

تدافع البحارة ليروا المشهد فلفتوا نظرها . رأت بين البحارة رجلاً مسنًا يكسو الوشم جسده كأنه غطاء تابوت فرعونى . وبرغم من تعليقات الضباط الفرنسيين فقــد دنت مـــن الرجل وفتحت صدر قميصـــه وراحـــت تتأمل بانبهـــار الوشم الأزرق والقرمزى الذى يكسو جلده . وراحت تبدى إعجابها عن طريق أصوات وإشارات .

كان الفرنسيون فى دهشـــة وخجل مـــن هــذا السلوك الذى لم يتوقعه أحد ، لكن السيدة تمادت أكثر .. فقــد رفعت عباءتها كاشفة عن منظر جعل الفرنسيين المذعورين يتراجعون بسرعة .. وسرعان ما ركبوا قواربهم فارين من هذه الكارثة .



الفصـل الثانى

لن أنسى الـــ 18 يومًا أو العشرين التى راحـــت فيهـــا الريح التجارية تدفعنا نحو الجزر . كنا نبحث عن الحيتان ، ثم صارت مهمتنا أن نترك السفينة تمضى مع الريح وهكذا قامت بالباقى . ولم يحرك المسئول عن الدفة شيئًا بل وضع يده عليها فقط .. وكان ينـــام ســـاعات كاملة . وقامت السفينة بمهمتها كهؤلاء الأشخاص الذين يجيدون عملهم عندما تتركهم وشأنهم .

يا له من وقت هادئ خامل قضيناه ونحن ننزلق . كنا نرقد عند مقدمة المركب وهناك (تندة) فوق رءوسنا وجلسنا وأكلنا هناك . بدا كأننا تحت تأثير منوم .. القراءة لم تكن واردة لأنك ما أن تمسك بكتاب حتى تنام خلال ثانية .

من بعيـــد ترى الحيتان ســـابحة ، وأسماك القـــرش تنظر لنا بعيون حاقدة .. لكن أهم شىء يلفت نظرك هو الصمت القوى .. ما من صوت يخرقه على الإطلاق ..

إذ دنونا من الجزيرة هللت لما رأيت حشودًا من طيور البحر . كانت تصرخ وتحلق فى دوائر حول السفينة . كان هذا الطائر يسمى (صقر البوارج) يدنو منا حتى يمكنك أن ترى عينيه . ثم يحلق فى الهواء قانعًا بما رآه .

بحث القبطان عن نظارته المقـــربة ، وأخرج الطباخ الزنجى رأسه المشعث من مطبخ السفينة ، وراح كلب السفينة بوتسوين يتواثب فى حماس . الأرض !.... هى هنا !

خط غير منتظم أزرق اللون يشير إلى مرتفعات نوكوهيفا .

هذه الجزيرة برغم أنهم يعتبرونها من جزر الماركيز ، إلا أن الملاحين يعتبرونها جـــزءًا مـــن مجموعـــة مستقلة فيها جزر روهوكا وروبو ونوكوهيفا . وهى تشـــكل مثلثًا يطلقـــون عليه (مجموعة واشنطن) . فيما عدا هذا يتكلم سكانها كباقى سكان الماركيز ولهم نفس الدين والعادات . لم يكن أحـــد يعرف عنهم شيئًا حتى عام 1791 عندما اكتشفهم القبطان إنجراهام من بوسطن .. بعد اكتشافات الأسبان بقرنين . سوف أتعامل معها كجزء من جزر الماركيز على كل حال .

نوكوهيفا هى أهم الجزر هنا وتفضل السفن الرسو عندها .. وهنا أصلح القبطان الأسطورى بورتر سفنه أثناء الحرب بين إنجلترا وأمريكا .

طول الجزيرة نحو 20 ميلاً ولها نفس العرض تقريبًا ... لها ثلاثة موانئ يطلق الأهالى على أكبرها (تايوهى) وأطلق عليها القبطان بورتر اسم (خليج ماساتشوستس) . فسد أهل هذه المناطق بسبب تعاملهم الحديث مع الغربيين ولكنهم ما زالوا يحتفظون بصفاتهم البدائية وما زالوا كما رآهم البيض أول مرة . هناك قبائل معادية فى أماكن أبعد ولم يختلطوا قط بالبيض لذا ظلوا كما هم .

كنا نقصد مرفأ نوكوهيفا . أبحرنا مع النسيم طيلة الليل وأبحرنا حول الساحل لنبلغ المرفأ الذى أردناه . وهذا أعطانا فرصة لنرى الشلالات والمرتفعات وفى كل لحظة نرى جمالاً يفوق ما سبق .

عند الظهر بلغنا مدخل الميناء ولست قادرًا على وصف جماله . ورأيت علم فرنسا مثلث الألوان فوق ثلاث سفن بدا واضحًا

طابعها الحربى . عرفنا فيما بعد سبب وجودها هناك .. لقد استولى الأميرال دو بيتى توار على هذه الجزر باسم الأمة الفرنسية التى لا تقهر . عرفنا هذه المعلومة من متسول بحرى جاء بقاربه يطلب حسنة من سفينتنا وساعدناه على الصعود . وبرغم أنه كان متزنًا بصعوبة ولا يستطيع السير على ظهر السفينة فإنه عرض خدماته علينا كى يقود السفينة إلى مكان آمن للرسو . بل إنه راح يصدر تعليمات الملاح .. بالطبع لم يطعه أحد ..

عرفنا فيما بعد أن صديقنا العجيب كان ملازمًا فى البحرية الإنجليزية لكنه أهان العلم البريطانى بارتكاب جريمة فى مرفأ .. لذا غادر سفينته وأمضى أعوامًا يجوب جزر المحيط الهادى حتى بلغ هذه الجزيرة .

إذ دنونا من الشط خرجت عشرات القوارب الصغيرة تحيط بنا .. كان هذا المشهد من الإشارات المحمومة والصرخات الغريبة شيئًا لم أره فى حياتى قط . يخيل لك أنهم كانوا على وشك تمزيق حلوق بعضهم فى تنافسهم على بلوغنا ..

فجأة رأيت على الماء مجموعـة من ثمار جـوز الهند تسبح وتتحرك نحونا .. انحنيت على حاجز السفينة أحاول فهم هذه الظاهرة الغريبة . فى المركز رأيت ما بدا لى كثمرة جوز هند مركزية غريبة جدًا . ولما دققت بدا لى كأنها جمجمة حليقة لأحد الأهالى .

ثم بدأت أتبين عينين .. وأدركت أن ما خطر لى أنه ثمرة كان بالفعل رأس أحد سكان الجزر ، يستخدم هذه الطريقة لعرض بضاعته ..

وكان جوز الهند يتصل ببعضه عن طريق قشور تم سلخها وربطها ببعضها .. وكـان البائع يقـف وسط هـذه المجموعة الغريبة ويضرب الماء بقدميه .

لم تكن هناك أى أنثى من حولنا وسط هذا الحشد .. لم أعرف أن قوانين التابوو تحرم على النساء لمس هذه القوارب فى كل الجزيرة ، وهذا التحريم يصل لدرجة الموت . وعلى المرأة فى جزر الماركيز إذا سبحت فى الماء أن تستعمل جسدها فقط ..

كان بعض سكان الجزر قد تسلقوا إلى سفينتنا .. ورأينا شيئًا يشبه تجمعًا للأسماك أمام السفينة ، لكنهم قالوا لنا أن هذا تجمع من البنات الصغيرات (وينهنيز) قادمات ليرحبن بنا .

إذ اقترين رأيتهن يرتفعـن ويهبطن .. رأيـت الذراع اليمنى مرفوعة ملوحة بلحاء شجرة ، وشعرهن الأسـود الطويل يسبح خلفهن .. خطر لى أنهن عرائس بحر .. بالفعل كن كذلك .

تعلقن بخشـب السفينة أو حبالها مـن كـل مكان .. بحيوية المتوحشـين كـن يضـحكن ويثرثرن . وبرغم أنهـن لا يلبسن سوى قطعـة قمـاش على الخصر فقد صعدن لسفينتنا وتسلقن كل مكـان . بعضهن تمـددن على القـوارب أو على مقـدمة السفينة .

يا له من مشهد نراه نحن البحارة العـزاب ! كيف يمكن أن تقاوم إغراء كهذا ؟..

أثار منظرهن دهشتى .. شباب مطلق وسمرة صافية وملامح رقيقة وأجسام لا يمكن وصفها ..

لقد تمت السيطرة على السفينة دولى .. أخذوا السفينة ونحن استسلمنا كأسرى .. طيلة الوقــت ظلت السفينة وطاقمها تحت سيطرة عرائس البحر .

فى المساء كـــان المرفأ مضاء بالمصابيح بينما قامت هــذه العرائس بالاحتفال . هاته الفتيات مولعات بالرقص .. إن رقص بنات جزر الماركيز رائـــع ، لكن فيـــه شهوانية لا أجـــرؤ على وصفها .

الفصـل الثالث

بلغنا الجزر فى صيف 1842 وكان الفرنسيون قد سيطروا عليها منـــذ أشهر عديـــدة . وكانوا قـــد وزعـــوا قواتهم على الجـــزر تحسبًا لهجمـــات الوطنيين المحتملة . كـــان الوطنيون ينظـــرون لهـــؤلاء الذين استباحوا ســـواحلهم بنظـــرة هى مزيج من الكره والخـــوف . كانوا يخافـــون بطاريات المدفعية المصـــوبة ليس إلى حصون بل إلى أكـــواخ بدائيـــة يحيط بها جوز الهنـــد .

كان هناك نحو مئة جندى على شاطئ نوكوهيفا ، يقيمون فى خيام صنعت من الأشرعة القديمة ومحاطة بالخنادق . وفى كل يوم كانوا يؤدون تدريبات عسكرية كاملة أمام أعين الوطنيين الذين امتلأوا احترامًا وتهيبًا .

لم يؤد وصولنا إلى تقليل اهتمـــام الوطنيين بما يحدث على شطآن بلادهم . لكن لم يلق شيء اهتمامهم مثل حصان جاءت به إحدى سفن الفيلق . كان حيوانًا جميلاً صنعوا له حظيرة من

أغصان شجر جوز الهند . أحيانًا كانوا يخرجونه وقد وضعوا عليه غطاء مبهرجًا مزركشًا ، ثم يمتطيه أحد الضباط بسرعة عالية عبر الرمال . وكان هذا المشهد يقابل بالصراخ من الأهالى مع عبارة (بواركى نوبى) أى (الخنزير الكبير) ، لأن الحصان كان أغرب عينة حيوانية يرونها فى حياتهم .

فظائع كثيرة ارتكبها الفرنسيون ، حتى أن المرء يعتقد أنه من الخير أن يترك البربريين وشأنهم لو كان هذا هو ثمن الحضارة .

هناك فظائع تستحق أن يحكيها المرء عن طرق الفرنسيين فى إرغام الوطنيين على الاستسلام . لقد تركوا هنا دمية لهم هى حاكم نوكوهيفا الذى أغرقوه بالهدايا . وقد صمم الفرنسيون على أن يملك الملك كل مجد أجداده .. لو قاومت أى قبيلة سلطة الفرنسيين ورفضت أن تخضع لتاج مووانا فليذوقوا عقابهم .

بنفس هذا المنطق ارتكبت مذابح كثيرة فى تاهيتى عروس البحار الجنوبية . لقد ترك الأدميرال دو بيتى توار باقى قواته فى جزر الماركيز وأبحر إلى الجزيرة المنكوبة . وصل هناك فطلب

تعويضًا عن إهانة مزعومة لعلم بلاده قدره ثلاثون ألف دولار ، وإلا هبط على الجزيرة واستولى عليها .

وصلت السفينة إلى المرسى فأبرزت مدافعها وتأهب رجالها .. واستعدت لهبوط الرجال تحت ستار من مدفعيتها . وظلت فى هذا الوضع لفترة طويلة بينما دارت محادثات طويلة . الملكة بومارو المسكينة التى أثار الفرنسيون رعبها وشعرت بمصيبة دانية ، فقرت فى قارب تحت جنح الليل . هنا نحكى قصة بطولة نسائية واضحة ، حيث ظل العلم البريطانى يرفرف فوق بيت المبشر بريتشارد ، برغم أنه كان فى لندن وقتها وكانت زوجته وحدها . وفى يوم توجه ضابط مع مجموعة من الرجال إلى شرفة السيدة بريتشارد وطلب مقابلة الزوجة .. خرجت لتقابله فانحنى الفرنسى وقال بلكنة إنجليزية سيئة أن الأدميرال يطلب إنزال العلم .

قالت له الزوجة :

– « قل للقرصان سيدك أن عليه أن يأتى ليؤدى المهمة بنفسه لو كان يريد إنزال العلم » .

ثم انحنت ودخلت إلى البيت . نظر الضابط إلى العلم فأدرك أن الحبل الذى يثبته يتجه إلى نافذة علوية فى البيت حيث تجلس السيدة التى قابلها تغزل . هل تم إنزال العلم ؟.. لم تسمح معز بريتشارد بهذا .. ويبدو أن الأدميرال رأى وجهة النظر ذاتها .

الفصـل الرابع

لم تطل وقفتنا فى مرفأ نوكوهيفا حتى اتخذت قرارى بالفرار من السفينة .

أما عن أسـباب اتخاذى هـذا القـرار فهـو أننى قررت أن أجرب حظى مع المتوحشين على تحمل رحلة أخرى على السفينة دوللى . هكذا كان ما نويته : الفرار بلا أى مجاملة أو تأنق فى اللفظ .

عنـدما انضممت لهذه السفينة وقعت على الأوراق ، وبهذا ربطت نفسى بإرادتى وقانونًا للخدمة طيلة الرحلة . لكن فى كل العقود لو فشل أحـد الطرفين فى الوفاء بمسئوليته فى العقد ، فهذا يحل الطرف الآخر من مسئوليته . من لا يوافقنى على هذا ؟

دعنا نطبق هذا على الحالة الحالية إذن ..

كانت معاملتنا أقرب لمعاملة الطغاة للعبيد ، كانوا يتجاهلون المرضى بشكل غير إنسانى وكان التعيين يصرف بكميات شحيحة ،

وكانت الرحلات طويلة أكثر مـــن اللازم . القبطان كان مصدر المعاملة السيئة لــذا لا يمكن افتــراض أنه سيغير معاملته لنا . وكان يقابل أى شكوى باللامبالاة .

لمن نشكو ؟. لقد تركنا القانون والعدالة خلفنا .. وكان طاقم السفينة مجموعة من المنهكين المتفرقين .. فقط يتفقون فى شىء واحد هو قبول طغيان القبطان . وكـــان من المجنـــون أن يثور اثنان أو ثلاثة دون عون الآخرين .

برغم هذا يمكنك التحمـــل لهـــذه الصعاب لو تعزيت بفكرة الخلاص القريب من هذه المعاناة . لقد كانت رحلة صيد الحيتان طويلة جدًا وقد تمتد لثلاثة أو أربعة أعوام .

إن الاســـتعداد لهـــذه الحمـــلات يمكن أن يثيـــر هلعـــك .. السفينة لا تحمـــل بضاعة ، لذا تمتلئ مخـــازنها باحتياجاتها .. قطع لحم من كل الأشـــكال والأنواع يتـــم تمليحها ووضعها فى براميل . مع كميات من خبز البحر والماء . كميات هذا الطعام تثير ذهولك ..

فى العادة تحاول السفينة الظفر بحيتان إلى أن يقترب زادها من النفاد من ثم تعود أدراجها .. لكن حتى هذه الخطوة البسيطة قد يمنعها القبطان متصلب الرأى . لأنه يأمل فى أن يجدد مؤن السفينة فى شيلى أو بيرو .. ويبدأ من جديد . لقد أقسم أن يملأ السفينة بحيتان العنبر فإن لم يستطع فلن يمس سواحل أمريكا ثانية .

بعض ســـفن الحيتـــان لم تعـــد قـــط وظلت تجوب الأصقاع المهجورة كأنها سفينة أشباح . على أن أؤكد لك وأقسم بشرفى أننى غادرت السفينة منذ ثلاث سنوات ، لكنها ما زالت تجوب أصقاع المحيط الهادى وقيل أنها بلغت سواحل اليابان .

هكذا كنت قد قررت أن أترك السفينة .. اتخذت قرارى وبدأت أحصل على كل المعلومات التى أقدر على جمعها .. عن الجزيرة وسكانها ..

الحق أن الخليج كان يبدو كحدوة حصان ويطل المشهد على روعة لا توصف ، تشعرك بالحسرة لأن هذا الجمال يتوارى عن عيون عشاق الطبيعة فى هذه البقعة النائية . سوف ترى الجبال

العالية داخل الساحل ، وهى جبال تفصل بين القبائل المختلفة . وهى قبائل تشترك فى الدين واللغة لكنها تحترب بلا توقف . قرب هذه الجبال واد هائل تعيش فيه قبائل التايبى المخيفة .. القبائل التى تعادى كل القبائل الأخرى . إنهم رعب كل القبائل الأخرى .. هؤلاء المحاربون الأقوياء . لفظة تايبى فى لغة الجزر معناها (من يحب أكل لحم البشر) . وهذا يعنى أن أهل القبائل أكلة لحوم بشر ، وربما لمجرد الدلالة على شراستهم .

كنت مقتنعًا أن سكان الساحل أكلة لحوم بشر لكننى شعرت بنفور خاص نحو التايبى .

حتى قبل أن أبلغ جزر الماركيز سمعت من البحارة قصصًا عن هؤلاء التايبى . وكلها قصص منفرة .. ومنها مغامرة قبطان السفينة كاترين الذى جاء لهذا الساحل للمقايضة ، فأسره الأهالى وأخذوه لواديهم فلم ينقذه من ميتة قاسية سوى تدخل فتاة صغيرة .. فتاة سهلت فراره ليلاً إلى خليج نوكوهيفا .

سمعت كذلك عن سفينة إنجليزية جاءت منذ أعوام لهذا الخليج ، وتطوع بعض رجال القبائل بأن يقودوها لمرفأ آمن . رحب

القبطان الذى لا يعرف شيئًا عن القبائل هنا بهذا .. ما فعله الأهالى هو أنهم اقتادوا السفينة لترسو عندهم ، وفى الليل صعدوا على ظهرها بالمئات ولم يتركوا فوقها مخلوقًا حيًا .

حتى الفرنسيين الذين استعرضوا قواهم العسكرية وألوانهم فى الجزر كلها ، لم يزوروا وادى التايبى قط . كانوا يتوقعون مقاومة شرسة من الأهالى يفضلون تحاشيها الآن .

وقد عوض الفرنسيون عن خيبة أملهم بحرق كل كوخ قابلوه قبل رحيلهم . قضت هذه الأطلال المحترقة على ابتسامة الوادى . وبرغم هذا يندهش الفرنسيون بسبب كراهية هؤلاء الوثنيين للغربيين . وبهذا يستحق المتوحشون لقب المتوحشين الذى نطلقه عليهم .

كانوا يقابلون الغربيين بالحب والأحضان ، لكن هذه الأحضان كانت تصيبهم بالسم الذى يقضى عليهم .

الفظائع التى ترتكب هنا ضد بعض القبائل أمر يفوق الوصف .. وهذه أمور لا تحكى فى الوطن ولا يعرف عنها أحد

شيئًا لأنها تتم فى أطراف العالم . لكننا نحكى المذابح التى يرتكبها سكان تاهيتى مثلاً ضد رجالنا ، فنجرد الأساطيل ونذهب هناك لننتقم ونذبح وندمر .. ثم نطالب العالم المسيحى بأن يصفق لهذا الانتصار .

يمكن القول بلا خطأ إنه فى معظم الفظائع التى ارتكبها البولينيزيون ، كان الأوروبيون هم البادئون ..

دخلنا من خليج نوكوهيفا فى زورق السفينة ، حتى بلغنا خليج تيور عند الظهر . لم تكن هناك ريح وكانت الحرارة شديدة القيظ .. وقد نسينا أن نتزود بماء . لذا كان القيظ والظمأ متحالفين علينا معًا .

كنت متلهفًا على بلوغ الشط لذا وقفت فى الزورق متأهبًا للقفز .. وثبت فعلاً نحو مجموعة من المتوحشين صغار السن وقفوا للترحيب بنا . جريت وهم فى أثرى نحو أول بركة أراها . وشعرت بنشوة غير عادية .. كنت هناك فى ظلال (تيور) تحت أشجار جوز الهند فى جو رطيب منعش .

إذ نظرت حولى رأيت مشهدًا لا يوصف . الوادى الناعس يرقد فى ظلال الأشجار .

فى نفس يوم وصولى لتيور كان الأميرال الفرنسى قد جاء من نوكوهيفا وسط أسطوله ، ليستولى على الجزيرة . قابل الملك وقضى معه ساعتين . رأيت الملك المسن يتقدم مستعينًا بعكاز ويمشى وسط زعماء آخرين يتوكأ عليهم من حين لآخر .. كان مسنًا جدًا لكن جسده كان ضخمًا يدل على قوته القديمة وهيبته . التقى الرجل بالأميرال فتبادلا التحية ووقفا معًا كعظيمين .. الفرنسى الأنيق الفاخر والمتوحش الموشوم . تناقض شديد لكنهما يتمتعان بالنبل الواضح . مشهد عجيب فعلاً . حشد الفرنسيين والمتوحشين . وقفت أراقب المشهد من بعيد وفى يدى سباطة موز ، رحت آكل منها وأنا أتأمل غارقًا فى خواطرى الفلسفية .

الفصــل الخامس

صدقت نيتى للفرار وقد عرفت ما يكفى عن الجزيرة .. وقررت أن أضع خطة محكمة لأن الفرار قد تكون له نتائج وخيمة . كنت أخشى فكرة أن يتم القبض على وإعادتى للسفينة .

كنت أدرك أن القبطان الذى يعنى بنا كما يعنى الأب بأولاده لن يقبل أن يترك واحدًا منا مع المتوحشين . سوف يدفع مالاً لمن يأتى ببحارته الهاربين ... بالتأكيد سأجد كل الخليج فى أثرى طمعًا فى المكافأة .

يعيش الوطنيون هنـــا فى أعماق الوادى ويتحاشون الأماكن العالية ، لذا قدرت أن على أن اتخذ طريقى للمرتفعات .. يمكننى أن أذهب هناك وأبقى نفسى حيًا بالفاكهة . وأنتظر رحيل السفينة ، وهو مشهد لابد أننى سأراه من مكانى العالى .

راقت لى الفكرة .. وبدت لى ممتعة . سيكون ممتعًا أن أراقب السفينة الكريهة مـــن موضع عال .. وأرى الطبيعـــة من حولى وأقارنها بسطح السفينة الضيق الكئيب .

هناك عيب فى هـــذه الفكرة .. عيب واحد ؛ هو أن أسقط فى يد التايبى الدموية .. لابد أن شهيتهم مفتوحة بسبب هذا الإرتفاع العالى ، وربما يلتهموننى .. وهـــذه فـــكرة غير سارة . أعترف بذلك .

لكنى كنت مجبرًا على الفرار ، وخطر لى أن بوسعى تفادى هؤلاء المتوحشين فى الكهوف الكثيرة فى الجبل .

كنت قد أزمعت ألا أخبر أحدًا بنية الفرار هذه حتى وجدت أحد رفاق السفينة يقف متكئًا على الحاجز شـــارد الذهـــن . كان فتى يدعى توبى وهو مقارب لسنى . كان يميل لصحبتى ربما بسبب تقارب السن .

كان توبى مـــن طراز الجوالين الذى تقابله أحيانًا فى البحر ، الذين لا يتكلمون عن وطنهم أبدًا ولا تعرف أصولهم ولا اسمهم الحقيقى . كأنهم يتجهون لمصير غامض لا يستطيعون تفاديه .

بالإضافة لهذا كـــان توبى مهذبًا وسيمًا وقد ازداد سمرة من الشمس الاستوائية ، وكان طبعه سريعًا ناريًا سرعان ما يصير نوعًا من الحلم . لا يذكر أحـــد أنه رأى توبى يضحك .. أعنى

ضحكًا من القلب . كان يبتسم أحيانًا وكان ساخرًا بشكل كشف عن الكثير من طباعه .

أدركت أنه يكره السفينة من كل قلبه وأنه لو سنحت له فرصة الفرار فلسوف يهتبلها فورًا . لكن المحاولة كانت خطيرة ، وكنا فى مكان لا يمكن أن يفكر فى الفرار إليه سوى مستهتر مثلى .. وكنت مخطئًا .

خطر لى على الفور أن توبى يتأمل فى ذات الشىء الذى أفكر فيه .

لماذا لا أجد رفيقًا من زملاء السفينة يخفف عنى صعاب المغامرة ويقاسمنى الأخطار ؟ لو ظللت مختبئًا فى الجبال فمن يعزينى ؟

دارت هذه الخواطر فى ذهنى ، وتساءلت لماذا لم أفكر فى هذا الضوء من قبل . لكن لم يتأخر الأمر .

ضربت على كتف توبى ليصحو .. وبعــد بضع كلمات صار متفهمًا ..

اتفقنا على كل شىء ورتبنا الفرار .

فى اليوم التالى منح أفراد السطح إجازة ليكونوا بحريتهم ، وهذا ناسبنا جدًا .. قررنا أن ننفصل عن الرجال ما أن نبتعد عن شكوكهم ثم نفر إلى الجبال .

بدا لى أحد الأخاديد صالحًا للتسلق ليقودنا للجبال . قررنا أن نذهب هناك ونتوارى إلى أن ترحل السفينة . ثم نجرب حظنا فى الطريقة التى سيعاملنا بها سكان نوكوهيفا .

الفصـل السادس

فى الصباح قال لنا القبطان :

ــ « بما أننا أمضينا فى البحــر ســتة أشهر وأنكم أنهيتم عملكم .. فإننى أعتقد أنكم ترغبون فى النزول للشط .. يمكنكم هذا لكن تذكروا : أنا مضطر لأن أمنحكم الحرية ، لكن أى ابن آدم فيــكم يفضـــل أن يبقى على الســفينة بدلاً مـــن مواجهـــة المتوحشين أكلة لحم البشر .. احتمال عشرة لواحد أنكم ستلقون نهايتكم . رجال بيض كثيرون نزلوا للشط ولم يرهم أحد بعدها . سوف تذهبون .. لكــن لا تلومونى لو صــنع منكم المتوحشون وجبة عشاء .. ثمة فرصـــة واهيـــة للنجـــاة لو عدتم هنا قبل الغروب . فليرحمكم الرب ! »

ساد الوجوم بيننا .. لكن هذا لم يطل وسرعان ما كنا نتهيأ للنزول على الشط .

كان رأى البحارة القدامى أن هذا الرجل وغد كذاب لا يريد لنا أن نستمتع ببعض ساعات الراحـــة . جعلنا هذا نتحمس وقررنا أنه مهما كان كلام الرجل فلسوف نجعل يومنا حافلاً . كانت لدى

وتوبى خطة مختلفة . كنا قد رتبنا لفرار سريع للجبال .. تزودنا بملابس زائدة لذا كانت ثيابنا ثقيلة جداً .

اندهش طاقم السفينة لذلك فقال توبى بطريقته الجادة إنه يدخر التأنق للشواطئ الأسبانية حيث يهتم الناس بربطـــة عنق البحار بينما لا تبالى بها مجموعة من الوثنيين العراة . هكذا ضحكوا ومر الأمر بسلام .

دق جرسا السفينة فاتجه الرجال للقارب ..

ألقيت نظرة على السفينة فرأيت سلة الخبز وبقايا لحم العجل التى شكلت آخر وجبة لنا . لم أكن قد فكرت فى ادخار طعام لرحلتنا لأننى اعتمدت على فواكه الجزيرة .. لذا احتفظت معى ببعض هـــذا الفتات . ومنها البسكويت المخصص للبحارة . دسسته فى كيسى الذى أخفيت بداخله بعض التبغ والذى كنت أنوى مبادلته مع الأهالى لدى بلوغ الجزيرة .

وصلنا إلى الشط أخيراً .

كان الموسم مطيراً وقد انهالت السيول فوقنا . فانتظرنا تحت سقيفة إلى أن تمر العاصفة . هذا الصوت المتوم جعل الرجال

يغمضون عيونهم ويرقدون هنــا وهنــاك . وجدتها أنا وتوبى فرصة ممتازة للفرار ..

هكذا وجدنا أمامنا فسحة تقــود لذلك الأخـــدود الذى يقودنا لأعلى .

واصل المطر انهماره بلا فترة توقف .. وهذا ساعد خطتنا لأنه جعل الوطنيين بعيدين .

ابتعدنا مسافة كافية ولم نتبادل حرفًا مع أحدنا الآخر .. رأينا الجسر أمامنا فمضينا نحوه . قلت بصوت خفيض :

ـ « الآن يا توبى .. ولا كلمة .. لا تنظر للخلف حتى نبلغ قمة هذا الجبل . بعدها سوف نضحك بصوت عال .. أنت أخفنا فتقدم الطريق » .

وافق توبى وتقدم المسار .

اقتربنا من الأخدود فتوقفنا جوار شجيرات صفراء كثيفة كأنها أعمــدة مــن صلب . تبادلنا النظــرات مفكرين فى طريق عملية أكثر .. أدركنا أنه ما من سبيل سوى اجتياز هذه الغابة الكثيفة . هكذا تقدمت أنا لأننى الأثقل وبالتالى أفتح الطريق بشكل أفضل .

رحت أحشر نفسى بين النباتات فلم أوفق كأننى ضفدع يحاول أن يعبر بين أسنان مشط . عشر دقائق أنهكتنى فعلاً .

سال العرق من جسدينا كالشلال وامتلأنا بالجروح . هنا توقف المطر . واستعادت الشجيرات والنباتات مكانها السابق كالزنبرك بعد مرورنا . لكن كثافتها حجبت عنا الرؤية فلم نعد واثقين من مكاننا .

كنت منهكًا وشعرت أننى عاجز عــن التقــدم . جلست أرضًا وشعرت بأننى أغيب عن الوعى هنا جاء توبى جوارى يقترح خطة للخروج . كــان يشق النباتات حــوله كأنه يحصد . هكذا تناولت مديتى ورحت أمزق النباتات بلا رحمة . لكن كلما تقدمنا كلما بدا لنا أن هذه النباتات لا نهاية لها .

خطر لى أن من دون جناحين فلا أمل لنا فى الخروج من هنا . هنا فقط رأيت ضوء النهار بين الأعواد فصحت فى مرح ونقلت البشرى لتوبى .

لقد صرنا قرب الجسر . جلسنا نستريح قليلاً ثم بدأنا الصعود . كنا نخــاف الوطنيين جــدًا لذا رحنا نزحف وسط العشب كأننا حيتان .

كنـا الآن عنـد ذلك البروز الذى يحيـط الخليج بالمرتفعات الشامخة . بدا لنـا كأنه سطح مسـتو ينحدر نحـو البحر من المرتفعات حولنا . لقد صعدنا فى أكثر الأجزاء انخفاضًا وعلينا أن نواصل التسلق عبر طريق من الخضرة .

كانت خطتنا ناجحة حتى هـذه اللحظة .. وقـد جعلنا الهواء النقى ننتعش .

هنا سمعنا صوت صراخ الأهالى من الوادى .. لو نظروا لرأوا أشكالنا بوضوح مرسومة عكس السماء الصافية .

نظرنا للوديان تحتنا فرأينا الاهالى يركضون هنا وهناك وقد بدا أنهم فى حالة توتر شديدة . من هذه المسافة بدوا أقزامًا وبيوتهم البيضاء ضئيلة مـن هـذه المسافة . شعرنا بالأمن والأمان لأن الأهالى لا يتجهون نحو الجبال أبدًا ..

برغم هذا قررنا أن نفيد من الوقت لأقصى حد ، وركضنا نحو القمة حتى استوقفنا منحدر مائل لأسفل . هذا عطل رحلتنا نوعًا لكننا تجاوزناه ببعض الجهد . لم نكن قد نظرنا للخلف قط ... وقد بقيت ثلاث ساعات على غروب الشمس مع كوننا تحركنا فى الصباح .

الآن كنا نقـف عنـد أعلى ارتفاع فى الجزيرة .. لابد أننا على ارتفاع 3000 قـدم فوق البحـر وكـان المشهد مذهلاً . لو عشت مئة عـام فلن أنسى ما شعرت به وقتها من مهابة وإجلال .

الفصـل السابع

لم أكن فضوليًا لأرى البـلد الـذى سنقابله فى جهـة الجبـل الأخرى .

لكننا شعرنا بخيبة أمل بالغة ، لأننا لم نر على جانب الجبل الآخر منحدرًا لوديان واضحة . بدا أن الأرض ممتدة على ذات الارتفاع حتى مرمى الأفق . على الجانبين خضرة زاهية اللون لكننا لا نـرى أشجار فاكهة كتلك التى أملنـا فى أن نعيش على ثمارها .

لم نتوقع هـذا الكشـف ، وتوقعنا أن هـذا قد يؤدى لفشل خططنا . لم نتوقع أن ننزل المنحدر بحثًا عن طعام لأننا قد نقابل الأهـالى .. لو لم يأكلونا فلسـوف يعيدوننا للسفينة طلبًا لجائزة من الحلى .

ماذا نعمـل ؟.. لن تبحـر السفينة قبل 10 أيام فكيف نعيش حتى ذلك الحين ؟ ندمـت على أننـا لم نتـزود بالكثيـر من البسكويت . تذكرت الخبـز الـذى وضعته فى جعبتى وأردت أن أطمئن عليه .

بدأنا نفحص ما لدينا فى جعبتينا .

أخـرج لى صاحبى أولاً رطـلاً مـن التبغ معجونًا بلقيمات مبتلة من خبز السفينة . بدا لى كأننا أخرجناه حالاً من أعماق المحيط . شىء مقرف لكنـه بدا لى كنزًا ثمينًا .. ووضعت هذه الكتلة المعجونة على ورقة شجر كبيرة .

الكنز الآخر معه كان إبرة وخيطًا وأدوات حياكة . ما وجدته معى لم يكن أفضل .

اقترحت على توبى تقسيم الخبز لستة أنصبة ، تكفى لطعامنا ستة أيام حتى ترحل السفينة . هكذا بعد التقسيم وجدنا أن كل واحد منا له ملعقـة كبيـرة فى اليوم لا أكثر . قسمنا الأنصبة ولففناها فى قطع من الحرير ثم عهدت بها لتوبى .

صمنا باقى اليوم لأن الإفطار قد منحنا بعض الشبع . وبحثنا عن مأوى لليـل ، لأن منظر السـماء يوحى بقدوم ليلة مدلهمة عاصفة .

بدأنا نتقدم مستكشفين الجانب الآخر من الجبل .

بد المشهد كمساحة لا نهاية لها من العزلة . لابد أن الأرض لم تمس منذ الخلق ..

حتى صوتينا بديا غريبين كأن هذه المنطقة لم تسمع صوت إنسان من قبل . صحيح أنه لا توجد أشجار فاكهة هنا . لكن هذا يمنحنا طمأنينة .. لن نقابل المتوحشين على الأقل لأنهم بالتأكيد يوجدون حيث أشجار الفاكهة . هنا وجدنا ممرًا بين الأشجار .

لابد أن روبنسون كروزو لم يشعر بهذا الرعب عندما رأى آثار أقدام فى الرمال . تراجعنا للحظة خوفًا ثم قررنا أن نتبع هذه الآثار .. مشينا وراءها حتى حافة الأخدود حيث توقفت .

قال توبى :

ــ « إذن كل من يمشى فى هذا الاتجاه يثب .. أليس كذلك ؟ »

ــ « هل ترى أن نجرب ؟ »

ــ « وهــل تتوقع أن نظفر بشىء سوى تحطيم عنقينا ؟.. لو ظللت تستكشف كــل شىء يا صاحبى فلسوف تنتهى بتحطيم عنقك . سوف تقابل بعض هــؤلاء المتوحشين .. فلنمض الليل هنا » .

ــ « بل أفكر فى هــذا الأخدود .. فهو ظليل وقــد يقينا من العاصفة » .

اقتنع توبى أخيرًا وسبقنى إلى التسلق لأسفل الأخدود .

ما رأيناه كان مشهدًا ســوف يظل فى مخيلتى للأبد . كانت هناك خمسة مجار مائية مندفعة كشلال بفعل الأمطار.. وتصب فى حفرة مظلمة عميقة . بينما الأشجار ترتج من زلزال المياه الهادرة .

كان الغروب دانيًا ، واستطاع هذا الضوء الذى غمر الأشجار والجبال أن يجعل الأمر أسطوريًا . بعد قليل جــدًا سوف يصير الظلام دامسًا .

للحظة خطر لى أن هذا الممر كمين صنعه الأهالى لخداعنا كى نصل لهذا المكان ثم عدلت عن هذه الفكرة .

بدأنا نجمع الغصون لنبنى كوخًا ثم غطيناه بالعشب . وحشرنا جسدينا المرهقين هناك .

لن أنسى هــذه الليلة المرعبة . كان مستحيلاً أن أظفر بكلمة من توبى .. فقد ظل يرتجف طيلة الليل .. وبدا أن كل ما نحتاج له كى يجعل الليلة قاسية موجود .

كـان المطر ينهمر فى شلالات حتى صـار موضوع المأوى وهمًا .. وكلما حاولت حماية جزء من جسدى كشفت جزءًا آخر . الظلام الدامس والبرد وإدراكى لخطورة موقفنا .. كل هذا جردنى من شجاعتى تمامًا .

هكذا ترى أننا صحونا مبكرًا جدًا فى اليوم التالى بمجرد أن رأينا أول بصيص نور .

رفع توبى رأسه وقال بصوت مبحوح :

ـ « إننى أرى بعينى مفتوحتين أقـل بكثير مما أرى بعينين مغمضتين » .

قلت له :

ـ « هذا سخف .. أنت لم تصح بعد » .

ـ « صحوت ؟.. هذا يعنى أننى كنت نائمًا !.. هى إهانة أن تصف ما كنا فيه بأنه نوم ! »

وبدأنا مغادرة عريننا .. حاولنا تجفيف ثيابنا ورحنا نحاول إعادة الدم لأطرافنا . وقررنا أن نأكـل أى شىء فقد مرت علينا 24 ساعة من دون طعـام . جلسنا على صخرة وقسمنا نصيب

اليوم لأربعة أنصبة .. لى وله وللبل .. الحـق أن الجوع خير فاتح للشهية ولولا ذلـك لما جرؤنا على التهام هـذا الطعـام المقزز . وشربنا من الماء الذى أغرق كل شىء .

حان وقت الرحيل عن مكان لم يغرنا قط بأن نبقى فيه . وعدنا بالأمن فقط ..

قلت لتوبى أن علينا انتقاء مكان يكون موضعنا الثابت ، بدلاً من التحرك فى الجزيرة معرضين أنفسنا للخطر فى كل خطوة . وافق رفيقى وانطلقنا لأداء المهمة .

وجدنا مكانًا يسمح لنا بالنوم ، لكن العاصفة هبت من جديد بشراسة وصار الكـلام عن النوم وهمًا ، والأهم أن ثيابنا ابتلت ونحن قد جففناها للتـو . أنصح كل الشباب الذين يفرون من سفنهم على جزر شاعرية أن يحملوا مظلات .

بعد فترة طويلة من المطر المنهمر نام رفيقى ، فلم أجرؤ على أن أوقظه . كيف يقدر هؤلاء القوم على الصمود فى الدغل ؟

بدأت أشعر برعشـة وقشعريرة ، فقلت لنفسى أن سبب هذا هو ليلة أمس . ارتفعت حرارتى بشـدة وتورمت قدمى وآلمتنى

بشدة . حتى حسبت أننى قد لدغت من حية بينما أنا فى الأخدود . ثم تذكرت أن جزر بولينزيا كلها تمتاز بخلوها من الثعابين .

كانت الحمى تتزايد لكنى لم أرد أن أزعـــج صديقى النائم . نهضت وأبعدت غصن شجرة ، هنا رأيت مشهدًا ما زلت أذكره بنفس الحيوية . كأننى رأيت أشجار الجنة أمامى .

كنت أرى الوادى يمتد أمامى متموجًا .. نحو البحر الأزرق . وبين الخضرة الكثيفة كنت ترى الأكواخ المغطاة بسعف النخيل . وعلى الجانبين حشـــد من الشلالات . لكن سحر المشهد بالفعـــل كان تلك الخضرة العامة . هذا هو سحر كل مشهد تراه فى جزر بولينزيا . الشلالات الصامتة تنحدر على الجانبين لتتوارى وسط الخضرة . الصمت يغمر كل شىء كأننا نعيش تلك الأسطورة التى يكفى صوت واحد كى يحطم التعويذة .

ظللت أرقب هذا المشهد غير مصدق أننى أراه حقًا .

الفصـل الثـامن

أيقظت توبى وأطلعته على المشهد الرائع . انبهر كما انبهرت .

كان السؤال فقط هو هل المشهد الذى نراه ينتمى للهابار أم لقبيلة تايبى ؟.. هذا سؤال مهم .. أن الهابار مسالمون معروفون بالرفق والمودة . لا يجب أن يهيموا بنا حبًا لكنهم على الأقل يمكن أن يمنحونا المأوى لبعض الوقت .

فى نفس الوقت كان اسم تايبى يثير الهلع فى قلبى . بدت لى مخاطرة مرعبة أن أنزل الوادى فأخاطر بأن أقابل التايبى . كان توبى يؤمن أن النزول للوادى آمـــن .. فلن نقابل إلا الهابار . وذكرنى بصعوبة وضعنا وخطورته .

بدأت الحمى تتزايد معى .. وعـــادت القشعريرة .. وشعرت بظمأ شديد .. ظمأ حارق ..

بدأنا نتحرك للقمة صاعدين . وفى كل خطوة أزداد إرهاقًا لكن توبى راح يشجعنى . كانت الحمى تجعلنى أنتفض نفضات شبه كهربية .. وغمرنى العرق . أضف لهذا التواء ساقى الذى جعلنى عاجزًا عن المشى .

عنــدما وصلنا لجـدول وانحنيت لأشرب أدركت أننى لا أطيق المــاء .

بعــد ساعتين من الجهد الجهيد بلغنا قمة أخرى . كان المنظر كئيبًا كما كان من قبــل ، وأدركت أننا فى مأزق حقيقى . لقــد ابتعدنا عن الخليج بمسافة كبيرة وضللنا الطريق فعلاً .

بنينا كوخًا صغيرًا نأوى له هــذه الليلة ، وكــان أفضل بناء وأكثر توفيقًا من البقعــة التعســة التى نمنا فيها أمس .. نمت بصعوبة بسبب الألم الذى يغمرنى وأعتقد أننى لم أغف سوى ثلاث مرات . لم تمطر الســماء لحســن الحــظ فى تلك الليلة . أما توبى فنام بعمق مستريحًا .

عندما صحونا ذهلت للتغييــر الذى حــدث له من نــوم ليلة هادئة .

كنت أفضل نوعًا مما كنت ليلاً ، وبرغم الألم الشديد لم أرد أن أفسد مزاجه الرائق ، لذا طلبت منــه مازحًا أن يعــد لنا مأدبة الإفطار . كان كل شىء مبتلاً لذا لم نأكل الطعام بل امتصصناه.. ثم رحنا نناقش خطوتنا القادمة .

قال لى توبى :

ــ « مستحيل أن يكــون ســكان أرض جميلة كهذه غيــر متحضرين .. لن أموت جوعًا فى كهف كهــذا .. أفضل أن ننزل للوادى ونجازف » .

ــ « وكيف نصل إليه ؟ »

فكر قليلاً ثم قال :

ــ « المجارى المائية تهبط لأسفل .. ثم تحتشد هناك . علينا أن نهبط معها وهى تقودنا للبحر .. دعك من مخاوف التايبى البلهاء ولنهبط معًا إلى وادى الهابار » .

ــ « لندع الله أن يكونوا الهابار فعلاً » .

ــ « هم الهابار فعلاً .. إننى أرى أشجار جوز الهند وأرى أشجار الجوافة .. هلم يا صاحبى معى » .

قالها واندفع عبــر المنحدر ناسيًا أن حالتى الصحية لا تسمح باللحاق به .

الفصل التاسع

كانت حماسة توبى معــدية . وبدأت فعــلاً أعتقد أننا سنلتقى الهابار .

كان تقدمنا سريعًا فى البداية ثم ازداد صعوبة . كان مجرى الماء مسدودًا بصخور مهشمة سقطت مــن عل . وكانت هناك شلالات فى كل مكان . كنا نتعثر بلا توقف ، كما أن الغصون البارزة بالعرض كانت تسد الطريق علينا وتحاول عرقلتنا .. بدأنا نعد للبيات هذه الليلة ، وقد رحنا نمضغ أوراق الشجر .. هى ليست مغذية لكن لها مذاقًا محببًا .

واصلنا النزول . ثم سمعنا صوتًا عاليًا يدوى .. ثم بدأ يتعالى أكثر . كان هذا شلالاً عاتيًا . كنا نهبط هاوية تلو هاوية نحو الوادى ، وكدت أسقط أكثر من مرة لولا أن تمسكت بالأغصان ..

كان توبى يزداد شجاعة وإقدامًا .. سواء كان يواجه التايبى أو شلالات نياجرا .

كان هذا شلالاً آخر منحدرًا تحيط به أشجار كثيفة تتناقض خضرتها مع المياه الفائرة حولها . بدأنا ندور حول الحافة فوق صخور بارزة . كان توبى هو الذى يقودنا الآن ..

ممر نمشى فيه بصعوبة ونحن نرى الشلال مــن تحتنا .. كان الممر يتسع .. وفجأة عند المنحنى ضاق جدًا إلى درجة يستحيل أن تسمح لنا بالمرور .

ساد الصمت .. ثم سألته لاهثًا :

ـ « حسن يا صاحبى .. ماذا عسانا نفعل الآن ؟ »

قال بصوت شــبه نائم أن علينا أن نجــد مخرجًا بسرعــة . وبلا كلمة أخرى وثب ليتعلق فى أغصان نخلة تقع تحتنا .. حبست أنفاسى متوقعًا أن أراه يسقط فى القاع . لكنى رأيته يطل على من مكمنه وسط الأغصان ويصيح فى :

ـ « هلم يا صاحبى .. احذ حذوى » .

كان لابد من عمل أى شىء كى أظل جواره .. بدا لى ما قام به معجزة .

نظرت لأسفل وحاولت أن أسترد ثقتى بنفسى .. ثم أغمضت عينى وصليت صلاة قصيرة ثم هويت نحــو الشجرة .. تهشمت الأغصان تحتى وهويت لأسفل .. إلى أن استوقفتنى ذراع قوية .

بعد لحظات كنت أقــف أسفل الشجرة أتفحص الإصابات فى جسدى . وكان باقى الهبوط سهلاً ..

فى الصباح كان الجوع يمزقنا لكننا لم نعترف بهذا لأنفسنا .. واصلنا هبوطنا المرعب .. كنا نأمل بشدة فى أن نرى الوادى أمامنا ..

يكفينى هذا .. لن أصف كل خطر وكل لحظة مروعة مرت بنا قبل أن نصل للوادى ..

يكفينا أن نقــول إننا فى النهاية وقفنا بلا أطراف مهشمة عند ذلك الوادى . كنا نقف فى الموضع الذى كنا نراقبه من عل منذ أيام ..

الفصـل العـاشر

أول ما فكرنا فيــه هو أن نجــد الفاكهة التى اقتنعنا بأنها موجودة قريبًا من هذا الموضع .

السؤال هو : تايبى أم هابار ؟.. هل هو الموت بيد أشنع أكلة لحم بشر ، أم استقبال دافئ من قوم متحضرين ؟ سوف نعرف الإجابة حالاً ..

بدا كأن هذا الجزء من الوادى بلا سكان . امتدت الأشجار من جانب لجــانب ولم نر أى نبــات يصلح للأكل . هكذا مشينا جوار مجرى الماء ونحن ننظر للأحراش على الجانبين .

بدأت ألاحظ أن رفيقى الذى كــان فى غاية الشجاعة قــد بدأ يبدى حذرًا واضحًا ... قال إننا لو وجدنا فاكهة فعلينا أن نظل حيث نحن حتى لا يفاجئنا السـكان . سـوف ننتظــر حتى ترحل سفينتنا ثم نعود لخليج نوكوهيفا .. لكنى لم أكن متحمسًا .. كنت منهكًا ولست على استعداد لمواجهة المزيد من المشاكل .. كنت مستعدًا للسقوط فى براثن الأهالى هنا مهما كانوا .

على الجانبين كانت الأشجار كثيفة فعلاً . ورحنا نبحث بعينينا عن فرجة تسمح بالمرور . تقدمنا ونحن نخشى اللحظة التى يحيينا فيها رمح متوار بين الأشجار . فجأة استوقفنى صاحبى ليشير لفرجة بين الأشجار وبعدها وجدنا مجموعة من الأشجار الموسمية اشتهرت بالفاكهة الشهية .

جرينا نحو هذه الأشجار كأنه سباق . وبرغم أن الثمار كانت شبه تالفة وقد التهمت الطيور أكثرها فإننا لم نذق ما هو أشهى فى حياتنا .

كنا نشعر فى كل لحظة بأننا نقترب من الوطنيين .. ترى هل هم هابار أم تايبى ؟

فجأة رأيته يجثو على ركبته ويتصلب كأن ثعبانًا قد لدغه .. ثم أشار لى كى أقترب منه لأرى شيئًا بين الأشجار . دنوت منه ونظرت لما ينظر له فوجدت اثنين يقفان عن بعد كأنهما يراقبان ما يحدث .

كان قرارى سريعًا ... مزقت قطعة من قماش أبيض ثم ثبتها إلى غصن انتزعته من شجرة .. ثم طلبت من توبى أن يتبعنى ، وخرجنا ونحن نلوح برمز السلام هذا .

كان هذان ولدًا وفتاة نحيلى الجسد عاريين تقريبًا عدا ما يستر العورة .. كـــان الفتى يلف عنق الفتاة بذراع بينما يمسك يدها بالذراع الأخرى . هكذا وقفا . قدم تتقدم للأمام كأنهما يتأهبان للفرار من تقدمنا .

خشيت أن يهربا فوقفت ولوحت بيدى أطلب منهما أن يأخذا ما أحمله لكنهما لم يفعلا . تقدمنا ببطء ثم طوحنا بالقماش على كتفيهما بما يعنى أن القطعتين لهما وأننا نحمل لهما أعظم تقدير . راح توبى يؤدى أداء بانتومايم عظيمًا لهما إذ يكشر عن أسنانه ويفتح فمه من الأذن للأذن .. حتى حسبنا المخلوقان البائسان آكلى لحم بشر يريدان التهامهما .

بدأت الأمطار تهطل بغزارة فأشرنا لهما كى يتقدما نحو مأوى . تقدمانا بالفعل .. لكن كان جليًا مدى الرعب لديهما منا .. كانا ينظران نحونا فى وجل طيلة الوقت .

تساءلت ونحن نمشى خلفهما :

— « تايبى أم هابار ؟ »

قال توبى فى ثقة أراد منها أن تخفى شكوكه :

— « طبعًا هابار » .

قلت له إننا سنعرف حالاً وأشرت لهما بيدى وكررت اللفظين مرارًا ، لكنهما لم يظهرا ما يدل على الفهم . رحت أردد عبارة (هابار) و(موتاركى) .. اللفظة الأخيرة معناها (طيب) .

هنا بدأ المتوحشان يردان بما يعنى الموافقـة .. أسعد هـذا توبى جدًا خاصة أنهما راحا يرددان الإجابة . هكذا نحن آمنان تمامًا .. لم أكن متأكدًا جدًا لكنى شاركت توبى فرحته .

ركضا أمامنا فحاولنا اللحاق بهم . أطلقا صيحات عالية ثم وجدنا أننا أمام مجموعة فتيات صغيرات صرخـن لما رأيننا وتوارين فى الدغـل كأنهن أفراخ . وسرعـان ما دوى الوادى بصيحات عالية واندفع الأهالى نحونا .

عدد كبير جدًا أحاط بنا ، وقد بدت عليهم الاستثارة كأن جيشًا مسلحًا هو الذى دخل أرضهم .

اقتادونا إلى كـوخ كبير من البامبو وأشاروا لنا كى ندخل . دخلنـا المكان فألقينـا بجسدينا المنهكين على الحشـايا على الأرض .. سرعان ما امتلأ المكان بالناس ، ومن لم يستطيعوا الوصول راحوا يختلسون النظر لنا عبر فجوات البامبو .

كان الغروب قد جاء لذا كان من الصعب تبين ملامح هؤلاء المتوحشين ، لكننا كنا نرى الوشم على أجساد المحاربين . وقد راح أول اثنين التقينا بهما يحكون للآخرين فى حماسة ما حدث لهما معنا . كان هؤلاء القوم يشوحون بطريقة غير عادية ..

بالقرب منا كان هناك ثمانية زعماء يراقبون المشهد . زعماء لأن هذا ما عرفناه بعـد ذلك . وكانوا أكثـر تحفظًا ووقارًا من الآخرين .

أحدهم بالذات ظل يراقبنى فى ثبات دون أن ينطق حرفًا ودون أن يرمش بعينه . نظـرة غريبة جـدًا لم أرها فى حياتى .. لا تكشف عن خواطر الرجل لكنها بالتأكيد تقرأ خواطرى أنا .

شعرت بعصبية فأخرجت بعض التبغ من الكيس الذى أحمله لكنه لم يهتم به وأشار لى كى أعيـده لمكانه . كـان هذا مقلقًا لأننى أعرف أن هؤلاء القوم لا يقاومون التبغ أبدًا .

كنت متوترًا لذا سألت السؤال المصيرى الذى يؤرقنى :

ـ « تايبى أم هابار ؟ »

أشرت للرجل وقلت (تايبى) فتكلم للتمثال المعتم أمامى وقال :

ـ « تايبى » .

قلت أنا بسرعة :

ـ « تايبى موتاركى » .

يبدو أن هذا راق لهم .. فنهضوا وراحوا يرددون هذه العبارة بلا توقف . لقد راقت لهم مجاملتنا .

وضع الزعيم يده على صدره وحاول أن يشرح لى أن اسمه (ميهيفى) . أشرت لصدرى وأخبرته أن اسمى هو (توم) . قال لى (تومو) (توما) .. (تومى) ... ظل عاجزًا عن النطق الصحيح للاسم وفى النهاية صرت (تومو) وبهذا الاسم عرفت طيلة إقامتى هناك .

إن تبادل الأسماء لدى هؤلاء البسطاء يشبه معاهدات السلام ، وهذا أراحنى كثيرًا . أشرت للزعيم أننا نرغب فى الأكل والنوم ، فأشار لأحد رجاله الذى عاد لنا بثمار جوز الهند مهشمة القشرة . ثم قدموا لنا البوبى بوبى المصنوع من نبات (الكلاباش) الذى لم أعرف كيف يمكن أكله . هذا الصنف يصنع من ثمار أشجار الخبز وله إلى حد ما مذاق غراء التجليد ونكهة حمضية . وهو لزج جدًا يلتصق بكل إصبع . كنت مرتبكًا جـدًا لـذا راحوا

يضحكون من حيرتى . لكن الرجل الجائع لا يبالى طويلاً باللياقة لذا أكلنا ولوثنا وجهينا بالمادة اللزجة . وهو طعـام ليس سيئًا ويمكن للأوروبى أن يتذوقه . بل إننى بعد أيام صرت مولعًا به .

عندما بدأنا نبـدل ثيابنا كانوا مندهشين مـن بياض جسدينا المتناقض مع وجهينا اللذين لوحتهما الشمس بعد ستة أشهر من العمل على ظهر السفينة . تفحصونا بعناية بل بالغ بعضهم وراح يشمنا .

أمطرونا بالأسئلة عن الفرنسيين ... وكان من الواضح أنهم يحملون لهم كرهًا عظيمًا ، حتى إنهم ظلوا يكررون السؤال حتى بعد ما أوضحنا أننا لا نعرف الكثير .

بعد فترة بدأت المجموعة تتفرق .. وظللنا وحدنا مع من بدا لنا كساكن أصلى لهذا البيت . ومع تقدم الوقت أطفئوا المشاعل وتمددوا على الأرض وسرعان ما غابوا فى نعاس عميق .

الفصل الحادى عشر

نام توبى بعمق لكن الألم الذى كنت أشعر به منعنى من النوم . ثم كنت أشعر بقلق عظيم .. هل نكون بعد هذه المعاناة قد وجدنا أنفسنا فى وادى التايبى ؟

لا يوجد مجال الشك .. إجابة سؤال تايبى أم هابار واضحة .. نحن فى موقف لا يمكن الفرار منه وهو ذات الموقف الذى كنت أرتجف هلعًا منه . ما مصيرنا المخيف إذن ؟.. حتى هذه اللحظة عوملنا معاملة ممتازة وكرم ضيافة ، لكن كيف تعرف المشاعر التى تتلاعب فى صدر آكل بشر ؟

هل يكون استقبالهم الكريم لنا نذيرًا بكارثة مروعة قادمة ؟

غرقت فى نوم عميق مع هذه الخواطر ، وعندما فتحت عينى وجدت مجموعة من الأهالى تحملق فى . كانت هناك فتيات كثيرات مزينات بالأزهار يرمقننى فى فضول واستمتاع . كن لطيفات جدًا خاليات من التصنع .. رحن يبعدن الذباب عنا وقدمن لنا الطعام ..

برغم هذا اللطف فقد شعرت بصدمة لأننى شعرت بهن يخرقن قواعد اللياقة الأنثوية .

دخل الكوخ محـــارب مهيب الشكل منحنيًا ، لكى يمر الريش الذى يغطى رأسه من الفتحة ، وأدركت على الفور أنه شخص ذو حيثية . أفسح له الوطنيون الطريق . حول عنقه عدة قلادات من أنياب الحلاليف البرية مصقولة كالعاج . وفى أذنيه كان نابان من أنياب حوت العنبر . فى يده اليمنى كان يحمل رمحًا جميل الشكل له طرف مدبب وطرف عريض مثل مجداف القارب . لكن أهم شىء فى مظهره كان الوشم الذى رسمه على كل أطرافه .. وشم معقد وكثيف جدًا يذكرك بالرســوم على الدانتيل . على وجهه كان شريطان من الوشم يلتقيان عند الحاجبين ويمتدان حتى الأذنين . جلس الرجــل غيــر قريب منا .. بدا لى شىء مألوف فى مظهره ، ثم تذكــرت أخيرًا أنه ميهيفى الذى كان يراقبنا ليلة أمس . لقد تغير كثيرًا وبدا لى أنه مسرور بما أحدثه مظهره البربرى فى نفسى .

كان مهتمًا جــدًا بمعرفــة كل شىء عــن (الفرانى) وهم الفرنسيون كما يسميهم . ثم أن حالة ساقى استلفتت نظره فنادى

أحد مرافقيه . بعـد قليل عاد المرافق مع رجـل مسن يمكن أن يكون أبقراط نفسه . كـان رأسه لامعًا . يتوكأ على عصا كأنها عصا سحرية مما يستعملها السحرة ، وباليد الأخرى كان يحمل حزمة من أوراق جوز الهند .

حيا ميهيفى هـذا الشيخ ثم أشـار له ليجلس بيننا . جلس الشيخ وراح يتأمل ساقى ثم راح يفركها بقوة كأنه يعتقد أن ساقى فقدت الإحساس . حاولت المقاومة لكنه تمسك بها كأنها شيء كان يبحث عنه منذ زمن . بينما أبقانى ميهيفى مكانى كأنه أم ترغم ابنها على الجلـوس فى كرسى طبيب الأسنان . فى النهاية أرخى قبضته فسقطت فاقد الرشد مبللاً بالعرق من فرط الألم . راح معذبى ينزع أعشابًا مـن نطاقه ويبللها بالماء ثم يضعها على ساقى .

نهض ميهيفى ليرحل لكنه قبل ذلك كلم أحد الوطنيين ويدعى كورى كورى . أعتقـد أنه أوصاه بالعناية بى . كان هذا الأخير رجلاً متين البنيـان فى سـن 26 عامًا له رأس حليـق تمامًا باستثناء دائرتين فى حجم الدولار قـرب أعلى الرأس . هناك استطال الشعر جدًا فتم عقده فى عقدتين ، مما جعلك تشعر أن له

قرنين . أما لحيته فكانت طويلة تتدلى حول شفتيه وأسفل عنقه . كما أنه صنع خطين من الوشم بالعرض على وجهه . لهذا كنت تشعر طيلة الوقت كأنه رجـل بائس ينظر لك من خلف قضبان سجن . قد يبدو هذا الكلام مسيئًا للرجـل ، لكنى أقول لك أى كورى – كورى إننى حى بفضلك وبفضل خدمتك المخلصة لى .

كان والد كورى كورى شيخًا غريب الأطوار يدعى مارهيو . وقد علمتنا الأيام أنه رجل خدوم . أما الأم فكانت ترعى دارها جيدًا .. لم تكن تجيد صنع الجيلى والمربى وكعك الشاى ، لكنها كانت خبيرة فى إعداد الأمار والبوى بوى والكوكو . كانت سيدة مشغولة لا تكف عن الحركة وتفعـل كل شيء بنفسها . تراها جالسة إلى الموقد تطهو البوى بوى .. أو تخرج للغاب ثم تعود بحزمة معينة من أوراق تريد طهيها تضعها تحت إبطها فلا تقدر امرأة أخرى على هـذا الحمل . كانت تعمل كأنها تحت وسواس مستمر يرغمها على التعب . وكانت تعنى بى فعلاً كأنها أم .

كان هناك كذلك فى الكوخ ثلاثة ذكـور لا يصلحون لشيء .. لا يفعلون سوى مطارحة بنات القبيلة الحب ، أو السكر والعربدة بالخمر المحلية ، أو تدخين الطباق مع عزاب آخرين مثلهم .

كانت هناك كذلك فتيات رقيقات لكنهن لا يقضين الوقت فى عزف البيانو ، بل فى عمل أشياء بلحاء شجر التوت . وكن يثرثرن بلا توقف . يجب أن أذكر هنا اسم العذراء فاياواى .. كنت أميل لها بشكل خاص ، خاصة أن وجهها وقدها كلنا الأجمل .. خاصة مع لون بشرتها الزيتونى الجميل الذى يمتص الشمس امتصاصًا .

عندما كانت تضحك كانت شفتاها المليئتان تكشفان عن أسنان كالعاج ناصع البيـاض . عينـاها زرقـاوان غريبتان تبـدوان غامضتين عندما تشرد .. لكن عندما تحس بعاطفة ما تلتمعان كالنجوم . كانت يداها ناعمتين كأنها كونتيسة غربية ، لا تحملان آثار العمل الشاق . وكانت قدماها برغم حفائهما دقيقتين نظيفتين دومًا . بوسعى أن أصـف فاياواى لكـن ليس بوسعى وصف الانطباع السار العام الذى تبعثـه حولها . لقـد نجت نوعًا من فظاعة فنانى الوشم هنـا ، لأنهم وجـدوا أنه لا داعى لإظهار مهارتهم بنفس الطريقـة التى يظهرونها مع المحاربين . فقط ثلاث نقاط دقيقة على كل شفة . وكعـادة بنات الجزيرة كانت تعتبر الأزهار نوعًا مـن الجواهر فلا تتحلى إلا بها . وكان هذا يناسبهن أكثر من أى جواهر .

الفصـل الثانى عشر

كان كورى كورى يعنى بى بشدة ، وأرغمنى على الأكل بأن يدس الطعام فى فمى دسًا بيده .. حاولت المقاومة فلم أستطع . ثم وضعنى على حشية وغطانى وقال لى :

ــ « كى تـوبى نوبى .. مـوبى مـوبى مورتـاكى » . أى (كل كثيرًا ونم بعمق) .

لقد بدأ ألم ساقى يزول وكنت منهكًا بعد سهر عدة أيام ، لذا غبت فى النوم فورًا .

أما عن التنقلات فقد كان كورى كورى يصر على أن يحملنى على كتفه . وقد أصر على أن يغسلنى فى نبع الماء بنفسه كأننى طفل صغير.

فى اليوم التالى تلقينا زيارة أخرى من ميهيفى المهيب . جلس بعض الوقت ثم طلب منى ومن توبى أن نلحق به . هكذا حملنى كورى كورى كأننى ذلك الشيخ الذى ركب على كتفى السندباد فى القصة .

رحنا نمشى فى طـريق غريب .. يبـدو أنه أهم طريق فى الجزيرة لأن طرقًا عديدة كانت تتجه له .. برغم هذا بدا وعرًا فعلاً . الطريق يدور حول بعض الصخور البارزة ، وأحيانًا يلتف حولها .. تمشى فـوق أشجار ضخمة مهشمة عبر الطريق .. تحنى رأسك لتفادى الأشجار ..

كان كورى كورى يلهث تحت ثقلى ، فطلبت أن أترجل وتوكأت على عصا ميهيفى ومشيت بنفسى .

دنت الرحلة مـن نهايتها إذ رأيت مشهدًا يصـعب أن أصفه بالكلمات .

هنا كانت الأماكن المحرمة فى الجزيرة .. موضع طقوس شنيعة تمت .. موضع ولائم عديدة أقيمت . تحت أشجار الخبز كانت هناك ظلمة .. ظلمة تشبه المحراب . رائحة العبادة الوثنية فى كل مكان .

وسط هـذه الظلال انتصبت الأصـنام التى يعبـدها هؤلاء المتوحشون . بنيت من حجـارة سوداء ضخمة . وهناك بقايا متحللة لوجبة من جوز الهنـد وثمار الخبز .. مع بقايا لأضحية قريبة .

وكانت هناك أرضية الهولا هـولا .. حيـث تمارس العبادات الوثنية .

هذه البقعة المقدسة كانت تحميها مراسم معقدة . كانت تابوو حقيقيًا .. وكانت الأنثى التى تدنس هـذا المكان أو تدخله تعدم فورًا .

كان هناك كذلك صرح كبير من الصخور وأشجار جوز الهند ، هو بيت للكهنة ..

تقدمنا ميهيفى . وحتى هذه اللحظة كنا نمشى وسط مجموعة من الوطنيين لكن فى هـذا المكان تراجعت النساء عن الحشد . هنـاك قوانين تابو صارمة تحمى هـذا المعبـد من الدنس الذى تجلبه الأنثى .

على جدران المعبد كـان حشد رائع مـن الرماح والهراوات واندهشـت لوجـود ثلاث بنادق عتيقة . لابد أن هـذه ترسانة القبيلة .

هنا قابلنا أربعـة مسنين يبدو أن الزمن والوشم أفقداهم كل لمسة إنسانية . محاربو القبيلة يتم وشمهم مبكرًا ومع الزمن يصير لونهم أخضر متجانسًا .. بالإضافة لهذا كان جلدهم شبيهًا

بالقشور . لكن أغرب شيء كان أصابع أقدامهم .. كأنها خطوط قطرية فى بوصلة . لم يبد أنهم لاحظونا .. بينما ركع ميهيفى على ركبتيـه أمامهم . وراح كـورى كورى يقـول كلامًا غير مفهوم .

دارت مأدبة حافلة ثم اشتعل الغليون . ومر من فم لفم . وبدأ التبغ مع الشبع يجعلان رأسينا يثقلان .

صحوت فى منتصف الليل لأجد أن الظلام الدامس يحيط بنا .

شعرت بالخطر فأيقظت رفيقى توبى وتهامسنا بسرعة محاولين فهم رحيل الوطنيين فجأة من حولنا .

قال توبى :

— « ذهبوا يشعلون النار » .

— « أى نار ؟ »

— « النار التى سيطهوننا عليها طبعًا .. لا يوجد سبب آخر ليشعل أكلة لحم البشر النار .. »

— « كف عن نكاتك السخيفة » .

— « بالعكس .. لو فكرت جيدًا لوجدت كلامى منطقيًا ولفهمت لماذا يطعموننا بهذا الكرم . ألم تر كيف يحشوك كورى كورى بالطعام ؟.. واضح أنهم سيشووننا الليلة » .

كنا بالفعل تحت رحمة قبيلة من أكلة لحوم البشر .. واحتماله غير مستبعد فعلاً .

هنا جاء صوت ميهيفى المهيب الهادئ فزالت مخاوفى . كان يقول :

— « تومو .. توبى .. كى كى (كُلا) » .

كان هناك متوحش آخر يحمـل قدرًا من الخشب فيه لحم يتصاعد البخار منه . وضعه عند قدمى ميهيفى .

قال توبى :

— « هل هـذا طفـل مسلوق إذن ؟... أنا مجنون إذ أمشى بقدمى إلى مجموعة أكلة لحوم بشر . لكن سوف أريهم .. لن آكل حتى أهزل وأصير كومة من عظام لا طعم لها » .

دس كورى كورى قطعة لحم فى فمى فرحت ألوكها .. كان طعمها طيبًا كأنه لحم عجل .

ـ « لا توجد ماشية على الجزيرة .. أؤكد لك أنك تلوك لحم طفل من الهابار ... تأكد من هذا » .

شـعرت بتقلص فى معـدتى . مـن أين يحصل هؤلاء على ماشية ؟

نظرت للزعيم مشيرًا بأننى أرغب فى بعض الضوء . عندما جاء مشعل تأملت الوعاء بدقة فوجدت بقايا خنزير صغير . وعرفت أن اسمه عندهم (بواركى) .

فى الصباح فكرنا فى الرحيل . لكن الزعيم استوقفنا رافعًا يده وقال (آبو آبو) أى (انتظرا .. انتظرا) ..

ثم عرفنا أنه سيرسل معنا نوعًا مـن حرس الشرف أثنـاء عودتنا لدار الضـيافة . والأهم أنهم حملـوا معنا الكثيـر من الطعام .. واضح أن ميهيفى يرسل معنا المزيد من الطعام لكورى كورى حتى لا تثقل عليه مئونتنا .

ومن جديد تحرك موكبنا عائدًا . تحف بنا الفتيات المغنيات .. وعدنا للبيت الذى كنا نقيم فيه .

الفصـل الثالث عشر

ظل السؤال يؤرقنى عـن سبب السمعة السيئة التى يحظى بها التايبى . ربما هم أكلة لحم بشر لكن لا أعرف أشخاصًا أكثر رقة وضيافة وتحضرًا منهم فى المحيط الهادى كله .

برغم هذا ظللت راغبًا فى الابتعاد عنهم .. وفى الفرار من الموت الذى يترصد بى وراء هذه الوجوه الباسمة .

كانت حالة ساقى تتدهور .. وبرغم الأعشاب التى أتعاطاها . كانت أعشابًا تخفف الألم لكنها لا تشفى . لابد أن علاجى مع الأطباء الفرنسيين فى خليج نوكوهيفا . لكن كيف أصل لهم ؟

طلبت من توبى أن يقصد الخليج هو .. لو استطاع أن يعود لى ببعض الفرنسيين يأخذوننى معهم فيها ، وإلا فليجلب لى بعض الدواء .

كان هو راغبا فى الفرار بشدة .. يخشى تبدل موقف الأهالى تجاهنا . كان كذلك يرى أن الفرنسيين لن يرسلوا رجالاً معنا .. لن يخاطروا بهذا خاصة أن سمعة التايبى سيئة ، وسوف يفهمون أن هذه حرب . كان منطقه قويًا لكننى أقنعته فى النهاية

نجحنا فى إقناع الأهالى بنيتنا .. عارضونا بقوة حتى يئست من نيل موافقتهم . كان كورى كورى لا يصدق أننا بعد ما عرفنا التابيى المتحضرين يمكن أن نذهب لتوكوهيفا . فى النهاية وافقوا على أن يرحل توبى فى الصباح ومعه اثنان من الأهالى كى يخبراه بأقصر طريق آمن .

فى الصباح ودعت صديقى فى تأثر فقال لى إنه سيعود خلال ثلاثة أيام على الأرجح . شعرت بوحشة بالغة لدى رحيله .. ورقدت لأنام شاعرًا باليأس .

بعد ساعتين عاد المحاربان وأخبرانى أنهما أوصلا صاحبنا لأبعد نقطة ممكنة وشرحا له طريقة السير .

عند العصر نمت فى الكوخ وأنا أشعر بالصمت من حولى .. ثم صحوت على صوت صرخة ..

تعالى الصوت أكثر فأكثر .. هرع الرجال يرون ما هنالك .. وكان كورى كورى أول من خرج . ثم عاد لى متقطع الأنفاس .. لم أفهم منه سوى أن حادثًا حدث لتوبى .

اندفعت للخارج فوجدت زحامًا من القوم يحملون فى أيديهم شخصًا . بينما راحت الفتيات يصرخن ويطوحن أذرعهن فى الهواء :

– « أوها .. أوها .. توبى موكى موبى ! (واحسرتاه .. لقد مات توبى) » .

دنوت من الجسد فاقد الحركة .. وجهه وصدره مغطيان بالدم تمامًا وهذا من جرح فى صدغه . ثم حملوه إلى الكوخ .

أشرت لهم كى يبتعدوا .. انحنيت على توبى ووضعت يدى على صدره فشعرت بخفقات قلبه . فى طرب سكبت وعاء ماء على وجهه ومسحت الدم وتفحصت الجرح .. بدت تحته الجمجمة عارية تمامًا . غسلت الرأس جيدًا بالماء هنا فتح توبى عينيه .. وبدأ يشرب من نصف جوزة هند وضعتها تحت شفتيه .

بعد ثلاث ساعات أفاق لدرجة تسمح له بأن يحكى ما حدث له .

قال توبى إنه ذهب مع الدليلين عبر المرتفعات .. وفى نقطة معينة توقف الدليلان وقالا له إنهما لا يستطيعان التقدم أكثر لأن هذه بيوت الهابار .. عليه أن يتقدم وحده ..

مشى وحـــده فقابل ثلاثة من سكان الجـــزر .. لابد أنهم من وادى الهابار . كل منهم كان يحمل رمحًا ثقيلاً ..

ــ « قالوا شيئًا لم أفهمه . تقدمت منهم ضاحكًا وأنا أمد يدى فتكلم أحدهم فى غضب وهو يشير لأرض التايبى ثم طوح بالرمح فسقطت أرضًا . هذا سبب لى هذا الجرح وفقدت الوعى للحظة . استعدت وعيى فكـــان أول ما خطر لى هـــو أن أركض هاربًا .. وهكذا نهضت وواصلت الفرار بينما أســـمع الصراخ من خلفى ، والدم يسيل على عينى فيعميني . مر رمح هائل جوار أذنى ... وانغرس فى شجرة جوارى . رحت أهبط الوادى وأدركت أنهم لا يجسرون على اللحـــاق بى لأننى دخلـــت فى أرض التايبى . لا أفهم سبب هـــذه الشراسة من الهابار إلا لو كان لأنهم رأونى آتيًا مـــن منطقـــة التايبى .. تحاملت على نفسى لأقتـــرب من موضعكم .. وفى النهاية لم أعـــد أستطيع التحمل أكثر فسقطت أرضًا » .

شعرت بصعوبة موقفنا .. كان الفرار مستحيلاً من هذه القبائل المتوحشة إلا عبر البحر ..

قال لنا كورى كورى :

ــ « هابار كيكنو نويى .. كيكى .. كاناكا .. (مرعبون هؤلاء الهابار .. يأكلون الكثير من الرجال) » .

ثم راح يمتدح التايبى وكيف أن الخير وافر عندهم فلا جوع ولا معاناة ..

الفصـل الرابع عشر

كنت فى حالة يأس مــن العودة للعالم الخارجى ، فجاء توبى يخبرنى باقتراب قوارب من الجزيرة .

عمت الفوضى بين الأهــالى وراحــوا يستعدون .. الفتيات يتزين بالأزهار والرجال يعدون الفاكهة والثمار التى سيقومون بمبادلتها مع القادمين . فوضى فى كــل مكــان . وهناك من يركضون يمينًا ويسارًا لا يفعلون شيئًا سوى إعاقة الآخرين .

هذه اللهفة تدل على أن هذا حدث نادر ، ومعنى هذا أن فرصة الهرب سانحة وقد لا تعود .. لكن كيف أذهب للشط بحالة ساقى هذه ؟

وبدا لى أن كورى كورى غير راغب بتاتًا فى السماح لى بالذهاب .. ولن يحملنى أبدًا . يبدو أنه ينفذ تعليمات من هو أكبر منه . طلب منى توبى أن أهــدأ وأتمالك حتى لا أثير شكوك الوطنيين ، وقال لى إنه سيحاول أن يصل للشاطئ ويحاول أن يجد نجدة لنا .

هكذا رحل الجميع وبقيت أنا أنتظر متسليًا بمنظر القوم وهم يهرعون لمقابلة القوارب .

عادوا عند الغروب .. فخرجت أراقب موكبهم .. رحت أبحث بعينى عن توبى وتوقعت أن يكون مع الحسناء فاياواى . لكنه لم يظهر ..

شعرت بهلع شديد ورحت أبحث عن تفسير لاختفائه . لم أظفر سوى بإجابات متناقضة .. فهمت من البعض أنه سيعود حالاً .. والبعض قال إنه لا يعرف أين هو . هنا وجدت فاياواى التى أحبها فعلاً .. ليس لجمالها فقط .. بل لأن روحها ذكية حساسة . كانت تعنى بى أثنــاء مرضى وأرى فى عينيها حساسية ورفقًا شديدين .

جاءت تقول لى :

— « أوها أوها .. تومو .. »

ثم جلست جوارى .. أدركت بوضوح مدى قلقى وتوترى . قالت لى أن توبى قد رحل مع القــوارب التى جاءت ووعد بأن يعود بعــد ثلاثة أيام . اتهمته بالجبــن والنذالة أولاً ، ثم قلت

لنفسى إنه سيعود حتمًا .. ربما يرتب لعودتى إلى نوكوهيفا .. ربما يعود لى بالدواء .

ظللت أنتظر ثلاثة أيام .. أعد كل لحظة .. سوف يعود غدًا ...

لكن الغد جاء ولم يأت ..

هكذا وقعت فى حيـــرة .. هل تخلى عنى بكل جبـــن وتركنى لمصيرى ؟.. أم هو سجين فى مكان آخر من الجزيرة ؟

اندهشت من كون الأهالى يتجنبون أى إشارة له فى كلامهم . وإن ذكروا له سيرة فقد كانوا يتحدثون عنه باعتباره الوغد الذى ذهب إلى نوكوهيفا .

ازدادت عناية القوم بى ، ولم يكن كورى كورى يتركنى أبدًا ، وكان يصمم على حملى إلى البركة ليحممنى بنفسه يوميًا . ثم أرقـــد على الضفة مغطيًا وجهى بقطعة شاش فتجلس فاياواى جوارى تحرك مروحة من ورق شجر جوز الهند .

هناك فى البحر تقـــف عذراء حسناء تحت ثمار جـــوز الهند بشعاب مرجانية ، وهذا لتجعلها أرق .. عندما تنتهى تصير أقرب لبلورة زجاجية رقيقة صالحة للشرب فيها .

فى المساء تلتف حـــولى الفتيـــات ويبعـــدن كورى كورى ، ثم يقمن بأيديهن الرقيقة بدهان جســـدى بزيت نباتى عطر اسمه عندهـــن (أكا) .. هكذا جمعـــت بين جمال المنظـــر وحسن المعاملة .. وساعد هـــذا على جعلى أنسى ما شعرت به من وحدة .

الفصـل الخامس عشر

كان الطعام جيدًا وكانوا يحاولون تنويعه لى ، لكن لم يكن هناك ملح لدى القبيلة لهذا كان معظم الطعام بلا مذاق . وكانت الفتيات يقصدن البحر ليجمعن بعض الملح لى ثم يأتين به على أوراق جوز الهند ويضعنه فى وسط الكوخ لأتذوقه .

كان الملح ثمينًا لدرجة أننى أعتقد أنه يمكنك بمكيال واحد من ملح الطعام العادى شراء كل أملاك التايبى . يكفيك بعض الملح فى يد وثمرة خبز فى اليد الأخرى لتصير من أثرياء التايبى .

سوف أحكى لك ما هى ثمار الخبز هذه . شجرة الخبز شجرة ذات أوراق كبيرة يستعملها الأهالى كأغطية للرأس . الثمرة نفسها قريبة من البطيخ عندنا .. لكنها غير مخططة من الخارج . بداخلها قلب أبيض صالح للأكل كله . لكن لابد أن يتم طهيه على النار . أسهل طريقـــة هى وضع الثمـــار على النار كأنك تشوى البطاطا .. بعد قليل تنفجر القشرة وتتقشر لتجد بداخلها ما يشبه الخبز اللذيذ . وله رائحة رائعة .

أحيانًا يلقون بالثمرة فى ماء بارد ويقلبون الخليط ويسمونه (بواشو) .. لم أحب هذا الخليط قط . هناك طريقة أخرى لها مذاق جدير بالملوك ، واسمها (كوكو) . هناك طريقة تدعى (بوى بوى) وهى تشبه الجيلى .

ثمار الخبز قابلة للتخزين ، وهذه نقطة مهمة . لأن الأشجار لا تعطى ثمارها أحيانًا .. ولو لم يمكنهم الاحتفاظ بمخزون لماتوا جوعًا . كانت أشجار الخبز فى أزهى وأفضل حالاتها فى جزر الماركيز .

* * *

كنت ألقى أفضل معاملة فعلاً .. ولكنى وسط هذا الكرم كنت قلقًا أشعر بالحنين . الحقيقة أن اختفاء توبى المريب أقلقنى . ثم كنت أتذكر أن هؤلاء القوم الكرماء ليسوا فى النهاية سوى أكلة لحوم بشر .

النقطة الأخـــرى هى حالة ساقى المقلقة . علاج هؤلاء القوم لا يجدى ، لكن حالتها تسوء منذرة بأخطر العواقب . هكذا من

المستحيل أن أهرب . وقد حدث أكثر من موقف ابتعدت فيه فبحث عنى المتوحشون وأحاطوا بى مكشرين عن أنيابهم .. هكذا فهمت الحقيقة : أنا أسيرهم .. حقيقة مفزعة لكنها حقيقة .

مرت الأيام ولم يتبدل سلوك أهل الجزيرة تجاهى ..

فقدت متابعة أيام الأسبوع ... وغبت فى غيبوبة طويلة سببها اليأس .

بدأت ساقى تتحسن مع الوقت وتلاشى الورم . وأدركت أننى سأشفى بسرعة . كنت أجول فى الجزيرة محاطًا بالوطنيين حيث ألقى أفضل استقبال فى كل مكان .. عذارى سوداوات العيون يضحكن لى . لكن كلما اقتربت من البحر كانت محاولات المنع تبدو جلية كالشمس .. لم يسمحوا لى بأن أكون وحدى قط ..

برغم كل شىء كنت أشعر أننى أعيش فى الوادى السعيد . ربما لم يكن هناك خلف هذه الهضاب الخضر سوى عالم من القلق والتوتر .

لقد جبت الجزيرة جيدًا وصرت على علم بحياة هؤلاء القوم . وخطر لى أن البولينزيين بالتأكيد أسعد من الأوروبيين فى نواح

كثيرة .. هذا الرجل العارى الباحث عن الطعام يجد كل ما يرغب فيه وكل رغباته .. فماذا يمكن أن تضيفه الحضارة له ؟ ربما تعمق فكره أو توسع مداركه .. هذا كلام سهل محفوظ .. لكن هل تجعله أسعد ؟

عليك أن تزور جزر هاواى لترى ما صار له القوم هناك ، وكيف انتشرت بينهم الأمراض السرية .. سوف يذهب المرء هناك فيتساءل : هل هذا حصاد خمسة وعشرين عامًا من التنوير ؟

صحيح أن التايبى أكلة لحم بشر ، لكنهم يفعلون هذا فقط مع أعدائهم وعلى سبيل الانتقام .. وحشية ؟.. ألم نقطع نحن فى إنجلترا رأس رجل اتهم بالوطنية أو الفلسفة ؟ ألم نجره ونلق بجسده فى النار ثم نعلقه ليتعفن ويراه الناس ؟

أسلحتنا المخيفة .. كل هذا يجعل الرجل الأبيض جديرًا بأن يكون أشرس مخلوق عرفته الأرض . ولهذا أعتقد أننا فى الولايات المتحدة قد نحتاج إلى أربعة أو خمسة مبشرين من جزر الماركيز ينشرون حضارتهم بيننا .

هؤلاء البدائيون يجب أن يشكروا الله على ما أعطاهم من صحة ، فليست لديهم أمراض على الإطلاق هنا .. لم أر شخصًا سقيمًا واحدًا أو أرى على جلودهم بقعة واحدة .

كنت قد قضيت فى الجزيرة فترة طويلة ، لكنى لم أر قط حروبًا بين هؤلاء التايبى وبين خصومهم الهابار . وهذا برغم أن التايبى لم يخفوا لحظة كراهيتهم العنيفة للهابار . لم يحدث قط اشتباك بين الشعبين .

على كل حال كنت قد بدأت أشك فى كل القصص عن شراسة التايبى . قلت لنفسى أن هذه القصص خرافات . لقد ظفر هؤلاء القوم بسمعة سيئة عن غير حق .

لكنى كنت على خطأ ..

عرفت هذا ذات يوم رقدت فيه فى ذلك الصرح المقدس الخاص بهم . فجأة صحوت على صراخ مريع ففتحت عينى لأرى مجموعةً من الأهالى تحمل الرماح وتندفع .. ومن خلفهم نهض بعض الزعماء الراقدين بقربى .

وسمعت صرخة :

ـ « هابار .. هابار » .

ثم سمعت صوت طلقة بندقية عتيقة .. تعالى الصراخ والضوضاء ولابد أنهم أطلقوا عشرات الطلقات من تلك البندقية العتيقة . ثم ساد الصمت وتوقف صراخ النساء بعض الوقت ..

ظللت أصيخ السمع .

لمدة ساعتين لم يكن هناك صوت جديد .. لا صوت سوى طلقات من الغاب من حين لآخر . وكان كورى كورى وبعض الشيوخ يقفون جوارى دون أن يبدو عليهم ما يشير لشىء غريب .

كانت البنادق عتيقة جدًا تذكرنى بمدافع السلطان سليم على أسوار القسطنطينية .. بعضها يحتاج لساعة كى تعمره وتطلقه .

هنا جاء أحد المحاربين ليزف بشرى النصر العظيم :

ـ « هابار بوو أرفا » . (لقد فر الجبناء)

طرب كورى كورى للخبر كثيرًا وهلل .. قال إنه كان يتوقع ذلك وإنه من المستحيل على جيش من أكلة النار أن يحاربوا أبطال وادينا . عندما عاد المحاربون أدركت أن ثمن النصر كان فادحًا بين قتيل وجريح ومن فقد إصبعه وجاء به معه ، وحتى

القائد نفسه كان ينزف بغزارة من فخذه بسبب ضربة رمح . لا أعرف كم فقــد الهابار لكنهم بالتأكيد استطاعوا أخذ أسراهم معهم .

ترى لماذا لم يغــز ميهيفى وادى الهابار ؟.. لمـــاذا لم يسط عليهم ويأتى بمغانم منهم ..؟ مغانم من النوع الذى يؤكل والذى يميز كل احتفالات النصر هنا كما سمعت .

لمدة يومين ظل الناس يتكلمون عن هذه المناسبة .. ثم بدأ الناس ينسون وبدأ الهدوء يعود للوادى .

الفصـل السادس عشر

رحت أحاول الاستمتاع بوقتى قدر الإمكان .. مثلاً كنت اسبح فى البحر مع مجموعة من حسناوات الجزيرة فى كل يوم . بينما الطبيعة الجميلة تمتــد على مرمى البصر ، وتجرى المياه بين اشجار النخيل .

وفى يوم جـــاء كورى كورى بقـــارب ورحنا نشق به المياه الهادئة .. لاحظت هنا أن الفتيات عرائس البحر لا يلحقن بنا . هذا جعل رحلاتنا مملة كئيبة ..

قلت لكورى كورى إننى راغب فى أن تسبح الفتيات معنا ، فقال فى حزم :

ــ « تابوو .. تابوو » .

وهنا فهمت .. الفتيـــات لا يجــوز لهــن الاقتراب من القارب لأنهن تابوو ..

لكنى كنت راغبًا فى أن تركب فاياواى معنا وتبحر معى عبر البحيرة . أثار هذا الطلب ذعر كورى كورى .. تصرف كأن هذا

شيء مخيف لا يمكن التفكير فيه . كان هذا يخالف كل معتقداته الدينية .

طلبت نفس الطلب من الزعيم ميهيفى ، ففكر بعمق ثم انغمس فى حديث طويل لم أفهم منه شيئًا .. كان يتكلم عن التابوو طبعًا . كان الأمر يبـدو لى منطقيًا ... لماذا لا تملك المرأة الحـق فى ركوب القارب مثل الرجل ؟ لماذا تسبح هذه المخلوقات اللطيفة كالبط بينما يعتلى القارب رجال أشداء يقدرون على العوم ؟

لا أعرف الفتوى التى منحها له الكهنة .. لكنهم وافقوا فعلاً على أن تركب فاياواى القـارب . ويبـدو أننى وضعت المثال الثورى الأول الذى سيحذو الأهالى حذوه .

من ناحيتى صنعت لفاياواى ثوبًا جميلاً من بقايا قماش بقيت معى من السفينة .. وقد بدت فاتنة فى هذا الثوب . أذكر هذا اليوم جيدًا لأننى قابلت فيه شخصًا جديدًا . كنت نائمًا فى الكوخ عندما سمعت ضوضاء بالخارج .. اندفـع الشيخ فى حماسة للخيمة وزف لى البشائر :

ـ « مارتو بيمى » .

معنى هذا أن شخصًا يدعى مارتو يقترب ..

قالها ووقـف فى حماسة ليراقب انفعـالى . لكنى لم أبد أى انفعال . لابد أنه شخص مهـم مـن الضوضاء التى يحدثها الوطنيون . شعرت ببعض الغيرة بسبب ابتعاد اهتمامهم بى ، وقررت على سبيل الانتقام أن أعامل هذا المارتو ببعض البرود .

هنا رأيت الرجال قادمين مع أغرب عينة بشرية تفكر فيها .

كان فى الخامسة والعشرين .. طوله معتاد .. حليق الوجه جميل المحيا حتى أنه يصلح ليكون أبوللو البولينيزيين . كان شعره ينحدر على كتفيه فى جدائل بنية . ولم يكن فى وجهه أى وشم . لكن باقى الوشم على جسده كان مرسومًا بإتقان رائع . أجمل عمل فنى رأيته عند التايبى .

تقدم وسط الوطنيين وهـو يحمـل قطعة قماش تحت إبطه ويحمل باليد الأخرى رمحًا . بدا كمسافر يعرف أنه سيبدأ جزءًا ممتعًا من رحلته .

عرضت عليه أن يجلس جوارى لكنه تجاهل دعوتى بلا لياقة واتجه إلى ركن المكان ليجلس . تحرك فضولى بشدة لمعرفة من هو هذا الرجل المهم .

قدمت له الزوجة البوى بوى فراح بجرعه وسط نظرات الوطنيين المخلصة له . بالفعل شعرت بغيرة وبأن عصر تومو قد انتهى .

أنهى الشراب فأخذ بعض أنفاس من غليون قدموه له ..

راح يتكلم .. بالطبع لم أفهم أكثر كلامه سوى كلمتى (نوكوهيفا) و(فراتى) .. هكذا فهمت أنه يتكلم عن أشياء حدثت فى الأيام الماضية . كان يتحدث فى طلاقة ويؤثر بقوة فى الناس .

يعرف التايبى أن سمعتهم السيئة واسمهم المخيف قد حمياهم من اعتداء الفرنسيين حتى اللحظة .. كانوا يصغون له بعيون لامعة كأنها كلمات نبى ملهم .

طيلة الوقت لم يبد أنه لاحظنى .. تجاهل تام حيرنى . الغريب كذلك أنه لا ينتمى لهذا الوادى .. إذن كيف لا يفتك به التايبى ؟

نهض وهو لا زال يتكلم ولا ينظر لى .. ثم جلس جوارى . شعرت بدهشة بالغة .. ودهشت أكثر عندما التفت لى وقال :

ـ « كيف الحال ؟.. هل تحب هذا الساحل ؟ »

كانت دهشتى بالغة .. لكنى بعد ما استرجعت وعيى فكرت أن هذا الفتى يمكن أن يخبرنى بمصير توبى ، وهو ما بدا أن المتوحشين يخفونه عنى .

لم يبد على علم بالأمر ، وقال إنه جاء من نوكوهيفا . سألته عن سبب عدم إيذاء التايبى له فقال :

ـ « أنا تابوو .. أذهب لكل مكان .. لا أحد يؤذينى .. أنا تابو » .

تذكرت أن بعض الناس فى هذه الجزر يصيرون تابوو ويسمح لهم بالتنقل بين القبائل المتحاربة .

سألته عن كيفية تعلمه الإنجليزية فحكى لى إنه فى طفولته وقع أسيرًا على ظهر سفينة أجنبية لمدة ثلاثة أعوام . سألته عن سبب عدم كلامه معى من قبل . قال إنه كان يحاول أن يثير دهشتى وحيرتى . حكيت له عن قصتى بدورى فأصغى باهتمام .. لما وصلت إلى الجزء الخاص باختفاء توبى غير الموضوع سريعًا لسبب غير مفهوم . لماذا يخدعوننى ؟.. أثار هذا قلقى على مصيرى . فكرت جديًا فى أن أضع نفسى تحت حمايته وأعود معه إلى نوكوهيفا لكنه قال إن هذا مستحيل .. قال إن التايبى لن يتركونى أرحل .

هذا أثار هلعى .. أنا فى سجن رائع الجمال لكنه سجن ، ومن الواضح أن مصيرًا مروعًا ينتظرنى . ثم ألم يعامل التابيى توبى بذات الرقة واللطف من قبل ؟

عرض فـكرتى عليهم فقـوبل بوابل مـن الكلمات الغاضبة والشتائم كما هو واضح . دق قلبى فى رعب وقد تأكدت فعلاً من حقيقة الوضع . بدا أن حصانة التابو لا تعمل هنا .

وسرعان ما أشـار له ميهيفى كى يبتعـد ويجلس فى الركن القصى ولا يتكلم معى ثانية . جلس وسط الوجوم وراح يحاول أن يسلى القـوم ويحكى لهم كما كـان من قبل ، ثم وجد أنهم واجمون غير متحمسين .. بعـد قليل جمع عباءته والتقط رمحه واتجه لباب الكوخ .

راقبته وهو يختفى ثم غبت فى خواطرى القلقة .

الفصـل السابع عشر

ذات يوم اندفع مارهيو الشيخ للغرفة بنشاط غير مسبوق . لم أفهم ما يدور فى خلد الرجل .. إلى أن اتجه ليشير إلى قدمى .. ثم إلى حزمة تتدلى مـن سقف الكوخ فوق رءوسنا . ثم فهمت ما يريده فأشرت له كى ينزل الحزمة ..

نفذ الأمر بسرعة البرق وفك قطعة القماش ..

خلعت حذائى العتيق البـالى وناولته له .. فهو لم يعد يصلح لشىء .

عصر ذلك اليوم جاء هذا المحارب الشجاع للكوخ بمشية ثابتة يحمل رمحًا .. وفى عنقه كان يتدلى الحذاءان كأنهما قلادة .. ومنذ ذلك اليوم صار الحذاء جزءًا مهمًا من زينته .

هكذا مضـت الحيـاة رتيبـة فى الوادى . نصحو صباحًا فى سـاعة متأخـرة حيـث تلقى الشمس أسهمها الذهبيـة فـوق جبال الهابار . أتجـه للنهر مع فاياواى وكـورى كـورى .. نستحم ونعـود ويدى فى يد فاياواى شـاعرين برضا تام عن

الكون . سرعان ما تعد وجبة الصباح .. الأهالى يقتصدون فى وجبة الصباح ويفضلون أن تكون الوجبات الدسمة لباقى اليوم . التهم بعض البوبى بوبى ثم قطعة من فاكهة الخبز المشوية . بعدها موزتان وتنهى الوجبة بشرب ثمرة جوز هند . يتم تناول الإفطار فى جلسة جماعية تتخللها محادثات للتسلية .

بعد هذا تشتعل الغلايين . لما ينتهى التدخين يعود مارهيو للكوخ الذى يبنيه للأبد . الزوجة تعود لتفقد نسيجها .. والفتيات يدهن شعرهن بالزيوت . بينما يعكف الشباب على العناية برماحهم . البعض يعود للنوم على الحصير بينما يذهب آخرون للدغل لجمع الألياف وأوراق الشجر . بالواقع لم يكن هؤلاء القوم بحاجة لشىء يشغل وقتهم .. عندهم دائمًا ما يشغلهم .

عند الظهيرة يأتى وقت القيلولة .. والغالبية ينامون فى تلك الأراجيح المعلقة بين الأشجار ، وتستمر ساعة ونصفًا ثم ينهضون لأهم وجبة فى اليوم . هذه الوجبة كانت تحوى لحم الحيوانات .

كنت أقضى وقتًا طيبًا فى مكانهم المقدس الذى يسمونه (تى) .. كان محرمًا على النسوة لذا كنت أجلس هناك مع المحاربين ، والمكان أقرب إلى ناد لعزاب القبيلة على كل حال . يأتى المساء فنعود للمكان قرب الدغل ويبدأ الغناء وترقص الفتيات فى ضوء القمر . الرقص لا يشارك فيه الرجال ، وفيه تحرك الفتاة كل جزء من جسمها بلا توقف ، وهن مغطيات بالورود والريش حتى تشعر أنك ترى سربًا من البجع .

بعد هذا ينام الجميع .. لم أر فى حياتى من ينام بهذا العمق ويقضى ساعات بهذا الطول ، ولعل هذا سبب قوتهم الطبيعية ولياقتهم .

* * *

ذات يوم كنت أقصد التاى فوجدت استعدادات واسعة لشىء ما .. يبدو أن كرنفالا ما كان فى الطريق . كان الوطنيون يركضون ذات اليمين واليسار . كانوا يعدون أوعية كبيرة من البوبى بوبى .. ويجرون خلف الخنازير البرية . سمعت صوت صراخ حاد فهرعت لأرى ما هنالك .. وجدت أنه خنزير برى كبير يرغمه

عدد من الأهالى على أن يرقد أرضًا . وكان هناك رجل ضخم يحاول أن يهشم رأس الخنزير التعس بهراوة كبيرة . تلقى الخنازير ضربات يمكن أن تقتل قطيع ثيران . وفى النهاية تكوم بلا حراك .

حمله القوم دون أن ينزف قطرة دم واحدة وحملوه إلى النار وراحوا يحركونه بأقدامه .. حتى احترق شعره كله ، ثم نزعوا أحشاءه وغسلوه جيدًا ثم لفوه فى أوراق الشجر .. ووضعوه فى موقد معد سلفًا . ثم دفنوه تحت الأرض .. هكذا أسلوب التابيى فى طهى اللحم . لم يكن هذا هو الخنزير الوحيد .. لقد دوت صرخات الخنازير عبر الوادى كله .

فى الوقت نفسه كان عدد كبير منهم يجمع فاكهة الخبز .

عندما ترى المشهد يخيل لك أن هذه مزرعة من النمل الأسود يجر ساق صرصور . قــال لى الزعيم أن الغد يشهد حفلاً مهمًا وعلى ألا أتخلف عن الحضور .. لم أفهم المناسبة أو من أجل من ..

حاول كورى كورى أن يشرح لى بعض الأمور ، وكان كلامه مختلطًا لدرجة أننى تأذيت من سماعه ..

قادنى عبر الدغل إلى هرم ارتفاعه عشرة أقدام .. يبدو كأنه مكون من جماجم متراصة .

رأى ذعرى ودهشتى من هذا المشهد فحاول أن يشرح لى .. لكن بلا جدوى .. وحتى هذه اللحظة لم أفهم معنى هذا النصب الأثرى .

استمرت استعدادات الحفل فى اليوم الثانى ..

كان المحاربون يتزينون ويعدون الرماح والحراب .. بينما انهمكت العذارى فى الزينة ولبسن ثياب المهرجان . أهم ما فيه كان قلادة عنق من الزهور البيضاء تم انتزاع قلوبها وعقدت بليفــة طويلة . كانت فاياواى تلبس مثلهــن وكان بوسعى أن أتحدى بجمالها أى جمال فى العالم .

دعانى كورى كورى للذهاب إلى صرحهم المقــدس . ووقف ينتظرنى فى نفاد صبر كأنه مضيف ينتظر ضيوفه كى يلحقوا به فى غرفة الطعام . فى النهاية ذهبت معه إلى التاى .. وأدهشنى أنه وقــف للحظات كى يعنى بمظهره .. هكذ وجدت أن على أن

أتأنق قليلاً مثلهم . نزعت ثيابى ولففت قطعة قماش حول خصرى ، ثم وجدت بعض الفتيات الصغيرات فحصلت منهن على أزهار على شكل قبعة مضحكة وعلقت قلادة أوراق شجر . وهكذا صرت متأهبا لتسلق الصخور .

الفصل الثامن عشر

التف الأهالى حولى وراحوا يرقصون ويغنون وهم يقتادوننى إلى المحراب المقدس . كانت بالداخل مأدبة عظيمة من اللحم والبوى بوى .. وكانت هناك أعواد بامبو غليظة تم سد نهاياتها بورق الشجر وقد امتلأت بالماء .

فى داخل الصرح نفسه كان مشهد هائل .. مجموعة كبيرة من الحصر فى صفوف بين جذوع شجر جوز الهند ، فوقها تمدد الزعماء والمواطنون يأكلون أو يلطفون هموم حياتهم البولينزية فى دخان الطباق . كان الدخان يستنشق من ثمار جوز هند عملاقة مفرغة .. وكانت الآنية تمرر من يد ليد . يدخن كل واحد نفسين ثم يناولها لشخص ثان راقد .

كان الطباق هنا عطر الرائحة ، وقد بدا لى أنه نبت فى الوادى برغم أننى لم أر شجرة طباق واحدة هنا . بعض الوطنيين كانوا يحتاجون لما هو أقوى ، لذا كانوا يتناولون (الأرفا) ، وهو نوع من الجذور منتشر فى البحار الجنوبية . ويتم استعماله كعصارة .. أولاً ينبه الجهاز العصبى ثم يقود لحالة استرخاء .

يتم تحضيره بطريقة واحــدة هى أن تجلس دستة مــن الشباب ويمضغون الجذور ثم يبصقونها فى إناء جوارهم .. ثم يتم صب الماء على الجذور الممضوغة ويصير معدًا للاستعمال .

كان الزعيم قد احتفظ لى بقسط كبير من الطعام بمناسبة هــذه المأدبة .

وفى الصباح خرجنا لنجد مجموعة مــن النسوة متقدمات فى السن يقفــن منتصبات القــامة ثم يثبن إلى أعلى بلا توقف ، ووجوههن تعكس صرامة واضحة . عرفت من كورى على قدر ما فهمت أن هؤلاء أرامل لمحاربين قتلوا فى حروب سابقة ، وهن يظهــرن فى كــل المهرجانات ليذكرن القبيلة بما فقدنه . وكانت دقات الطبول عالية جدًا يمكن أن توقظ الموتى .

استمرت هــذه الحفــلات طيلة اليوم .. ثم تكررت فى اليوم التالى .

حاولت جاهدًا أن أفهم معنى هــذه الاحتفالات ، لكن كورى كورى أغرقنى فى كلام مبهم لم أفهم منه شيئًا ..

الحقيقة أننى لم أر أوهامًا أبعد عن الحقيقة من خيال الغربيين عن أكلة البشر فى هذه الجزر . أنها قصص مثيرة تروق لخيال

الناس تصور هؤلاء التايبى فى صورة وحوش وثنية تلتهم لحم البشر طيلة الوقت . لقــد عشت بين هؤلاء القوم ما يكفى لأحكم على صحة هذه القصص .

هؤلاء الكتاب يعتمدون على كــلام بعض الرحالة الذين جابوا البحار الجنوبية لفترة طويلة .. مثلاً بحار الدفة على سفينتنا يحكى الكثير من القصص ويعرف دستة من كلمات التايبى لذا يعتبر نفسه حجة فى الأمر . يعرف ما يريد المستمع أن يسمعه ويعطيه له . هكذا يعود الكاتب لداره ويكتب عن أشياء يكاد لا يعرفها ..

رأيى عن ديانة هؤلاء القوم مبهم تمامًا .. لقد رأيت كل شىء لكنى لا أعرف أى شىء . أن كابتن كوك أمير المستكشفين قد قال إنه عجز تمامًا عن فهم أى شىء من ديانات سكان البحار الجنوبية . هــؤلاء القــوم كسالى جدًا بحيث يبحثون عن أسئلة أو يحاولون عمل مذهــب دينى . هناك صنم اسمه موا أرتوا .. لكن علاقتهم به غير مفهومة .. يحمله الكاهن فى يده من وقت لآخــر ويقــدم له القرابين . ثم يضع أذنه جــواره كأنه يسمع ما يقوله الإله له وينقله للناس . بل إنه يجيب عن الأسئلة التى يوجهها له المواطنون .

قال لى كورى كورى أن موا أرتوا قادر على أن يخرج شجرة جوز هند من رأس كورى كورى ، بل إن أسهل شيء بالنسبة له أن يبتلع الجزيرة كلهـا فى فمـه . على كل حال أعتقد أن الدين الوحيد المحترم فى الجزيرة هو التابوو .

* * *

عرفت الكثير من عادات التايبى لكن لم تتح لى قط الفرصة لأرى طقوس الدفن والمـوت عندهم . ثم جاءت الفرصة عندما مات شاب فى بيت قرب الشط ..

كنت عند الشاطئ ورأيت جزءًا لا بأس به من المراسم .. لفوا الجسد فى قطعة قماش ثم وضعوه على سرير من أعواد البامبو المربوطة معًا على ارتفاع قدمين من الأرض .

وقفـت امرأتان تولولان وتضربان الهـواء بأوراق الشجر . تم إعـداد أدوات الطعـام . ثم ظهـر ثلاثة رجـال يرتدون الزينة يتقدمون المراسم . ثم بدأ الحفـل ليستمر حتى الظهر .. بدا أن الجميع متأهبـون للمـرح . وراح الشـباب يمرحون ويصخبون ويرقصون كأن هـذا حفـل زفـاف ، على حين راح الشيوخ يدخنون .

إن السكان هنا يجيدون فن التحنيط وأحيانًا يحفظون الجثة عدة أعوام فى البيت بعد موتها .

حتى رءوس الأعداء المهزومين يتم قطعها وتعلق فى بيت المنتصر . أعتقد أن التبخير يلعب دورًا مهمًا لأن كل المومياوات التى رأيتها بدت كلحم خنزير تم تقديده فى مدفأة ..

أما عن الحفل الذى وصفته لك ، فقد اجتذب أعدادًا هائلة من السكان .. أعتقد أننى عددت ألفين منهم .

الحقيقة أن جو الجزيرة مغر جدًا بالكسل ، ولا أذكر أننى رأيت وطنيًا يتصبب عرقًا إلا من جهد إشعال النار . الله منحهم ثمار الخبز والموز وليس على الرجل البدائى سوى أن يمد يده ويقطف .

كيف لو عرف هؤلاء البائسون أن مصيرهم يتحدد فى حفلات الشاى فى إنجلترا ، عندما تتبرع السيدات والسادة بستة بنسات من أجل الحملات التى تعمل على تحضر هؤلاء الجهلة ..

فلتعمل على تحضر المتوحشين لكن ليكن تحضرًا ذا فائدة . اقض على الوثنية لكن ليس عن طريق تدمير الوثنى نفسه .

الفصل التاسع عشر

طيلة إقامتى فى الجزيرة لم أر محاكمة أو شرطة أو شخصًا يواجه جزاء جريمته ضد المجتمع . فقط هناك التابوو ... لم تكن هناك سرقة وكان كل واحد يبقى أبوابه مفتوحة ليلاً وينام ملء جفنيه . هذا الرمح الثمين المنقوش المزخرف أغلى من أى رمح فى الوادى .. لكنه متروك جوار شجرة جوز هند بلا اكتراث . هذه الحلية الجميلة المصنوعة من سن الحوت تتزين بها أجمل فتيات الجزيرة ، لكنها لا تضيع أبدًا ولا تسرقها أى فتاة .

ليست الفضيلة مرادفة للحضارة .. لا يمكنك أن تجد بين الغربيين كرم العربى الذى يعيش فى الصحراء .. ولا شجاعة الهندى الأحمر .. ولا وفاء الصديق البولينيزى . وجودى هنا وسط أكلة لحوم البشر قد جعلنى أؤمن بفضائل الإنسان أكثر فأكثر . وكان وضع النساء فى هذا الوادى متميزًا وممتازًا باستثناء قوانين التابوو التى لو لم تكن موجودة لاعتبرت التابيى من أفضل أجناس الأرض .

* * *

فى إحدى جولاتى مع كورى كورى سمعت بين الأشجار ضوضاء .. وهنا رأيت لأول مرة عملية الوشم . رأيت رجلاً راقدًا على ظهره على الأرض وقد بدا واضحًا أنه يتألم . بينما معذبه يركع جواره ليرسم الوشم بصخرة ومطرقة .. وفى يد أخرى يحمل عصا تنتهى بناب قرش يثقب بها الجلد ثم يصب المادة الملونة . يحضّرون هذه المادة بخلط الرماد مع عصير نباتى ، وهناك جواره مجموعة غريبة من الأدوات والعظام المدببة . بشكل ما ذكرتنى هذه المجموعة بأدوات طبيب الأسنان المرعبة .

كان الفنان يعمل على محارب بهت وشمه بفعل السنين . وكان العمل يتركز على الجفنين ليرسم خطًا عرضيًا يشبه الخط على جفنى كورى كورى .

الفنان يعمل ببرود كأنه جراح جيش ويثقب بلا توقف كنقار خشب . وكان منهمكًا لدرجة أنه لم يلحظ قدومى .. ثم لاحظنى فبدأ يعمل باحترافية . وراح يكلم كورى كورى ففهمت أنه يقنعه بعمل وشم لى .. ابتعدت فى رعب خشية أن أتشوه للأبد ، فراح الرجل يعمل بخيبة أمل بسبب ضياع هذه الفرصة الممتازة كى

يمتاز فى مجال عمله . كان إغراء أن يمارس فنونه مع جلدى الأبيض شديدًا ..

فوجئت بالرجل يجرى ورائى مصرًا على أن يرسم وشمًا على أنفى ، لكن كورى كورى أدرك ذعرى فاستوقفه .

هذه التجـربة أشعرتنى بخطر جديد يحـوم حولى .. يمكن لو غفلت أن يشوهوا وجهى فلا أجرؤ على العودة لقومى . ازداد الأمر خطرًا عندما أخبرنى الملك بأنه يرغب فى أن أرسم وشمًا على وجهى .. أبديت رعبى بما لا يدع مجالاً للشك . أثـار هذا دهشته لأنه لا يفهم كيف يرفض شخص عاقل عمليـة تجميلية مثل هذه .

فى النهاية ازداد إلحاحه وبدا غاضبًا ، لذا قبلت أن يرسموا لى الوشم على ذراعى .. وبدا لى هذا حلاً معقولاً . لكن الزعيم أصر على الوجـه وبدا أن الحرية الوحيـدة الممنوحة لى هى اختيار شكل الرسم . فى النهـاية بدأ الملك يلين ويتخلى عن إصراره لما رأى نفورى .

ازداد قلقى لهـذا المطلب .. مـن الواضح أن الوشم يتعلق بدينهم .. إذن هم يرغبون فى تحويلى .

اللغز الآخر الذى لم أستطع فهمه جيدًا هو التابوو . معقد جدًا لدرجة أننى أعرف كثيرين عاشـوا هنا عقـودًا وتعلموا لغـة البولينزيين لكنهم لم يفهموه جيدًا .

باختصار يعيش الهمجى فى هذه الجزر تحت السيطرة فى كل لحظة من حياته ، عبدًا لتقاليد قوية . يوم وصولى للوادى ناولت صديقى توبى بعض الطباق فوق رأس وطنى يجلس بيننا . فوثب هذا كأن ثعبانًا لدغه وصرخ :

– « تابوو ! »

فهمت أن هذا انعدام لياقة عندهم يتجاوز التقاليد . وقد تكررت عبارة تابو فى أحوال كثيرة بعضها لا أعرف تفسيرها . ذات مرة كنت أمشى فدخلت كوخًا فيه مجموعة فتيات يعددن الأقمشة .. ضحكن فى وجهى وقلن بعض كلمـات ، هنا انحنيت وأمسكت ببعض خيوط القماش بين أناملى . دوى صراخهن عاليًا فوثبت مذعورًا .. شعرت أنهن رأين مجمـوعة من محـاربى الهابار موشكين على اغتصابهن ، ولكن صراخهن تعـالى وأحطن بى وعيونهن متسعة وصدورهن تخفق .. ثم قالت لى واحدة منهن فى رعب :

ـ « تابووو ! »

يبدو أنه ممنوع على الذكور لمس هذا القماش بأى شكل لأنه سيصير ثيابًا لهن .

أهدانى الملك غليونًا .. صار تابوو هو الآخر ولم يعد من حق أحد أن يدخنه سواى .

التابو يتضمن أشـياء عديدة .. الخنزير الأسود .. الرضع .. الشباب أثناء عمل وشم لهم .. أجـزاء معينـة مـن الوادى ... إلخ ..

أحيانًا يتضمن التابو شخصًا أو أسرة كاملة .. ربما قبيلة ..

كل جزر الماركيز مثـلاً لديها تابو يمنع أى أنثى من ركوب القوارب . كل ما يخالف تقاليد سكان الجزر هو تابوو .. الأب يربى أولاده على أن مخالفة أوامره تابوو ..

أما عن لغة القوم فهى معقـدة جدًا .. المشكلة هى أن الكلمة الواحدة تستخدم بأكثر من معنى ، ويتوقف هذا على تعبير وجه المتكلم .. أن الكلمة هنا كالخادم الوحيد البائس فى بيت سادة بخلاء ، حيث يكلف بكل شىء ..

الفصـل العشـرون

كنت أجول فى الجزيرة مع كورى كورى ، عندما رأيت امرأة تقف فى البحيرة وهى تراقب شـيئًا عنـد قدميها كأنه ضفدع عملاق . دنوت فى فضول لأرى أكثر فوجدت أن المرأة تغمر رضيعًا فى الماء .. والمخلوق الصغير يجاهد كى يطفو .. يشرق ويملأ الماء فمه فيبكى ، من ثم تلتقطه وتضمه لصدرها ثم تعيده للماء من جديد . فى الأيام التالية تكرر هذا المشهد كثيرًا . لهذا يعشق سكان الجزيرة الماء ويسبحون كالأسماك ما داموا تعلموا السباحة بمجرد خروجهم للنور .

أعتقد أن الإنسان يسبح منـذ مولده بالسليقة ثم تدمر هذه العادة ويموت الناس بسهولة كأنهم قطط صغيرة بمجرد تعرضهم للمـاء .

فى ذلك الوقـت كنت قد قابلت الفنان الواشم ، وصارت حياتى جحيمًا بسبب إلحاح القوم على كى أجرى الوشم . لقد مرت على ثلاثة أشهر فى الوادى وبدأت أشعر بالوحـدة من دون صديق

أكلمه أو أشكو له خواطرى .. صحيح أن الجميع ظلوا يعاملوننى بذات المـودة واللطف . برغم هـذا تظاهـرت بالمرح وبأننى طبيعى .

المشكلة الأخرى هى أن السقم الذى أصابنى فى أيامى الأولى على الجزيرة قد بدأ يعاودنى من جديد . أضف لهذا أن حادثًا معينًا جعلنى أتوتر جدًا .

قلت إنه كانت هناك لفائف تتدلى من عمود خشبى فى سقف كوخ مارهيو ..

كنت أرى هذه اللفائف فى أيدى الوطنيين لكن كانت هناك ثلاث لفائف تثير فضولى بشدة .

ذات مرة عدت مبكرة من التـاى .. فوجدت سكان البيت قد فوجئوا بقدومى وارتبكوا جدًا . لقـد كانوا يفحصون تلك اللفائف الثلاث . أصابنى رعبهم بشعور بالخطر ..

حاول كورى كورى منعى لكنى بلغت مركز الدائرة لأرى ثلاثة رءوس آدمية يحاول الوطنيون أن يداروها . كان أحد الرءوس

محفوظًا بشكل ممتاز ويبدو أنه مر بعملية تدخين جعلته ينكمش ويصير كالمومياء . وقد تم ملء فراغ العينين بقشرة محار .

رأسان كانا من الوطنيين بينما الثالث كان لرجل أبيض . أثار هذا هلعى .

رباه الرحيم !.. أى خواطر سوداء جالت فى رأسى وقتها . قبل أن أفهم أكثر كانت اللفائف المخيفة قد أغلقت ورفعت ..

كنت أفكر فى أن هـذه رءوس محـاربى الهابار .. لكن من صاحب الرأس الثالث ؟ استغرقت وقتًا لأتذكر أن هـذه اللفائف معلقة من السقف قبل اختفاء توبى وهكذا هدأت نوعًا . لكن ظل مذاق التجربة الرهيب يؤرقنى . من كان ذلك التعس ؟.. وهل كتب على أن يأكلونى ويستبقوا رأسى كتذكار ؟

كنت قـد بدأت أشـك فى كل قصص أكل لحوم البشر التى سمعتها . ودعوت الله ألا أرى هذه الطقوس أثناء إقامتى .

الحقيقة أنه لا يوجد شهود عيـان على هذه الحوادث .. دائمًا يعتمد الأوروبيون على شهادة البولينزيين الذين تم تحضرهم .

وهم يخفون الكثير .. مثلاً لا نعرف بالضبط مصير كابتن كوك .. نعرف أنه قتل لكن لا نعرف هل أكلوه أم لا .

كان هناك زعيم شيخ فى جزيرة ماويى .. وكان يقدم نفسه للزوار على أنه القبر الحى لقـدم الكابتن كـوك !.. لهذا كان السواح يأتون بلا توقف .. لرؤية الرجل الذى قدر له أن يلتهم قدم الرحالة العظيم .

كنت ذات يوم فى التاى عنـدما دوى إنذار حرب آخر ، فهرع الرجال ليواجهوا محاربى الهاباى .

كما فى المـرة الأولى سـمعت صـوت طلقـات .. ثم سمعنا نذر قدوم المنتصرين ، فوقفـت مع كورى كورى ننتظر عودة الرجـال . سرعـان ما ظهـرت حشـود مـن الوطنيين بينهم أربعة رجال يمشون فى صف .. وكانوا يحملون جذع شجرة عليه جثث . الأول كان ينزف من جرح فى رأسه . كان مظهره يوحى بتعب وإرهاق فائقين .

على قدر ما فهمت مـن كورى كورى ، فهؤلاء هم أشجع المحاربين عائدين بجثث شهدائهم .

وأمامه وقف الزعيم يحمـل بندقيـة يتدلى من فوهتها كيس بارود . وفى اليد الأخرى رمح يلوح به فى فخر .

بلغ الحشد التاى المقدس ، هنا قال لى كورى كورى أن على أن أعود للبيت .. حاولت أن أنتظر أكثر لكنه أصر على أن أذهب .. تمسكت برأيى فى إصرار فشعرت على كتفى باليد الصارمة لما ماو .. وهو زعيم أعور دنا منى . كان قـد تلقى طعنة فى خده والجرح ما زال مفتوحًا مخيفًا .

لم أفهم سبب هذا التصرف غير المعتاد . وبعد تفكير خطر لى أن الوطنيين ينتوون ممارسـة طقس مخيف من طقوسهم . فى النهاية حملنى كورى كورى على ظهره وركض مبتعدًا .

صباح اليوم التالى دوت دقات الطبول فتزين كل سكان البيت وغادروا .

حاولت اللحـاق بهم فرفض كـورى كـورى وأصر على أن يحملنى إلى النهر لنستحم . وعنـدما عدت كان أهل البيت قد عادوا وناموا على الحصر .

فهمت فيما بعد أن هـذه الاحتفالات ليست للعامة ، بل هى مخصصة للكهنة والزعماء . هذا دعمَ الفكرة لدى .

عندما عدت مع كورى كورى للتـــاى المقدس بعـد العصر ، رحت أبحث بعينى عن أثر للطقوس المرعبة التى دارت هنا .. لكن بدا كل شىء معتادًا . أثنـــاء العـــودة وجدت ما يشبه إناء عملاقًا من خشب البامبو وعليـــه غطاء .. المنظر أقرب لقارب صغير الحجم . مددت يدى فى فضول إلى الغطاء ، هنا سمعت الزعماء يصيحون بى :

ـ « تابوو !.. تابوو ! »

لكنى كنت قد ألقيت نظرة كافية لأرى بالداخل عظامًا بشرية .. عظامًا طازجة ما زالت عليها قطع من اللحم الدامى !

أسرع كورى كورى نحـــوى وقـــد رأى الرعب على وجهى ، وراح يردد وهو يشير للوعاء :

ـ « بواركى .. بواركى (خنزير .. خنزير) » .

رددت الكلمـــات وراءه ، وبدا أن المتوحشين صـــدقوا أننى صدقت .. وهكذا غادرت معه مكان المجزرة .

ظللت مؤرقًا طوال الليل أستعيد المأزق المرعب الذى وقعت فيه .

هل هناك أمل فى الهرب ؟.. الأمل الوحيد الممكن هو مارنوو غريب الأطوار .

لماذا يبقينى هؤلاء القـــوم هنـــا ؟.. ما غرضـــهم ؟ لماذا يعاملوننى بهـــذه الرقة ؟ هنـــاك أمل واحـــد باق هـــو أن يزور الفرنسيون الوادى ووقتها لن يستطيع هؤلاء حجبى عنهم . لكن لماذا أفترض أننى سأظل حيًا حتى تلك اللحظة ؟

الفصـل الواحد والعشرون

دوت صيحات الفرحة فى الوادى :

ـ « مارنو !.. مارنو ! »

كان هذا بعد عشرة أيام من الأحداث السابقة ، ورأيت الغريب قادمًا فشعرت بالفــرح .. يمكن أن أتفاهم معــه بلغتى وأناقش سيناريوهات الهرب . جلس جوارى وراح يثرثر مع الأهالى .

صارحته بخططى فقال فى برود :

ـ « أنت لن تذهب لأى مكان .. أنت تابوو .. لماذا لا تحب البقاء فى الوادى ؟.. هنا كثير من موبى موبى (النوم) والكى كى (الأكل) والواهينى (البنات) .. لكن لماذا جئت أصلاً ؟.. ألم تسمع عن التايبى ؟ كل البيض يخافون التايبى .. لذا لا يأتى البيض » .

ضايقتنى هذه الكلمات جدًا . فأضاف :

ـ « التايبى لو غضبوا عليك يقتلونك أنا وأنت .. يأكلونك .. يعلقون رأسك هناك مثل الهابار .. لكن يمكنك أن تنتهز فرصة أن

يكــون التايبى فى موبى موبى .. تهرب فى طــريق بوياركا .. ألقاك فى موكوهيفا .. أنت تركب قاربًا » .

انتهت المحــادثة فنهض محييًا القــوم ملوحًا برمحه ، ثم صافحنى وقال :

ـ « أنت تفعل كما قلت لك .. هذا حسن .. أنت لا تفعل .. أنت تموت » .

وسرعان ما توارى فى اتجاه بلاد الهابار .

لكن كيف أفر ؟.. أنا محاصر بالتايبى .. أى حركة أقوم بها تجذب انتباههم حتى فى وقت القيلولة . لو أردت أى نجاح فعلى أن أبتعد بمسافة كافية قبــل أن يجدنى القــوم بنصف ساعة .. لا حل سوى هذا مع ضعفى ووهنى وجهلى بالوادى ، بينما هم سريعو الحركة يعرفون كل ثقب هنا .

كذلك لا أمل لى فى الفرار إلا ليلاً .

كانت هناك فتحــة فى البيت الذى أقيم فيــه ، وكانت مغلقة بقطعة كبيرة مــن الخشب .. عنــدما يريد أحدهم المغادرة كان يزيح هذه القطعة فيحدث ضوضاء توقظ الجميع .

قررت أن أنهض ليلاً فأزيح قطعة الخشب هذه زاعمًا أننى أريد أن أشرب .. ثم أعود للبيت فلا أرجعها مكانها زاعمًا أننى نسيت . سيكون المتوحشون ناعسين فلن ينهض أحد ليعيد قطعة الخشب .. أعود للحصيرة وأنتظر فى صبر حتى يعودوا للنوم ثم أفر إلى بوياركا .

فى الليلة التالية عند منتصف اليل بدأت تنفيذ خطتى .

نهضت وازحت قطعة الخشب فنهض الوطنيون كما توقعت . وسألنى واحد منهم :

ـ « أرويـر بـو أوا تومـو ؟ » (إلى أيـن أنـت ذاهـب يا تومو ؟)

قلت لهم :

ـ « واى (ماء) » .

وغادرت المكان ثم عدت بعد قليل وتظاهرت بالنوم . لما تعالى صوت غطيطهم فوجئت بشبح أحدهم ينهض فيسد الباب بقطعة الخشب من جديد ثم يعود للنوم .

كررت هـذه المحاولة عـدة ليال وفى كل مرة كنت أفشل . لا أعرف هل شك كورى كورى فى أمرى أم هو أراد أن يريحنى .. فقد جلب لى ثمرة مليئة بالماء جوار مرقدى .

كنـت أزداد وهنًا .. وصـار على أن أمشى على عكـاز أو يحملنى كورى كورى .

أرقد فى ألم وأتذكر رفاقى الذين يبعدون عنى عدة أميال .. لن يعرفوا مصيرى أبدًا ولن أعود لهم لأن ذكراى تلاشت مع غبار هذا الوادى .

الفصـل الثانى والعشرون

لابد أن أربعة أشهر مرت على فى الوادى ، عندما رأيت ماو ماو الزعيم ذا العين الواحدة يظهر عند الباب . انحنى على وقال بصوت خفيض :

ـ « توبى بيمى إينا (توبى هنا) » .

يا للسماء !.. ما أجمل هذا الخبر !

نهضت على قدمى وناديت كـورى كـورى فنهض الأهالى مندهشين . وسرعان ما كنا نتقدم فى موكب نحـو التاى . كل ما فهمته هو أن رفيقى عـاد للساحل فى قارب . وافق ميهيفى على أن ألقى صاحبى .. فسار معى خمسون من الأهالى وكانوا يتناوبون حملى على ظهر كل منهم .

لو كانت هـذه الأنباء الصحيحة فإن لدى أملاً فى الخلاص . الاقتراب من البحر نفسه عمل محرم .. وارتبط لدى بالفرار . قابلنا بعض التايبى فى منتصف الطريق فدار حوار صاخب .. لم أفهم المقصود لكنى رحت جاهدًا أحاول أن أجعلهم يندفعون للقاء ..

هنا قال لى كورى كورى كلمات قاسية باردة : الخبر خطأ .. لم يعد توبى .

وحملنى القوم ليعيدونى لبيت قريب .

أدركت أن هناك غريبين غرباء عند الساحل . لكن كيف أقنع الأهالى بالذهاب هناك ؟ أشرت لأحدهم كى يأخذنى للساحل زاعمًا أننى مقتنع أن توبى قد عاد .. لكنه رفض فى عناد . اتجهت إلى رمح ـ شاعرًا أن كل ثانية تمـر لن تعـوض ـ وتوكأت عليه قاصدًا الباب . لدهشتى لم يعترضوا طريقى .. وأدركت أنهم منقسمون لفريقين كل فريق يتبنى رأيًا ..

سد بعض القوم الطريق أمامى ، لكن ماريهيو الزعيم تقدم منى ووضع يده على كتفى وقال الكلمتين الوحيدتين الإنجليزتين اللتين يعرفهما :

ـ « بيت .. ماما » .

هكذا فهمت وارتجفت .

بكت فاياواى فى حرقة .. وقـد كرر الزعيم الأمر حتى تقدم كورى كورى وحملنى على كتفه .

لن أنسى ما شعرت به عندما تقدمنا ، وعندما سمعت صوت الموج ورأيت البحر بين فرجات الأشجار .. أيها المحيط العظيم المجيد !

عندما عبرنا حزام الأشجار كان أول ما رأيت هو قارب صيد حيتان إنجليزى . دققت النظر فأدركت أن القارب يتم إبعاده عن البحر .. وسرنى أكثر أن رأيت كاتاكا وكاراكوى . وهما وطنيان كانا يعملان على سفينتى القديمة . كـــان كاتاكا يحمل بندقية ويلــوح بها لبعــض الوطنيين ... واضح أنه يجــرى مساومة أو مقايضة ..

ثم فهمت .. إنه يقايض القوم على حريتى !

ناديته كى يقتــرب فلم ينظر لى . قـــال بالإنجليزية أن التايبى هددوا بأن يثقبوه برماحهم لو خطا خطوة واحدة نحوى . حاولت أن أقترب أنا منه .. لكن الأهالى منعونى .

أرغمونى على الجلوس على الأرض وهم يصوبون نحوى رماحهم .. وأدركت أن بعض الكهنــة يلحــون على كورى كى لا يتركنى أرحل .. كانوا يرددون :

ـــ « رو نى .. رو نى » .

شعرت بالقنوط فنهضت مسرعًا وجريت نحو كاراكوى . كانت هذه الحركة الخرقاء تكلفنى حياتى لأن الوطنيين صرخوا وهاجوا وأصاب الذعر كاراكوى ، فأمر من معه بالقارب أن يعودوا إلى المـــاء .

رأيت الدمـــوع فى عينى فاوياى ومارهيو .. لكننى قررت أن الوقت هو الآن أو لا للأبد . عانقت فايوياى العناق الأخير ثم اندفعت عبر الأمواج نحو القارب . وفى اللحظة التالية صرت فى القارب .

أمر كاراكوى الرجال أن يجدفوا بسرعة ويبتعدوا ...

كان هناك من يتبعنى ومنهم كورى كورى . قررت أن أقدم لهم علامة امتنانى الأخيرة بأن أعطيهم الأشياء التى جلبها قومى كفدية لى .. قذفت البندقية لكورى كورى .. وقذفت بحزمة قطن لمارهيو .. ثم طوحت أكياس البارود لبعض النساء ..

تم هذا خلال عشر ثوان .. وبدا كاتاكا مندهشًا من هذا التبديد.

هنا اندفـــع ماو ماو ومعـــه ستة محـــاربين إلى الماء لاحقين بالقارب .. وقذفوا رماحهم علينا . مر بعضها جوارنا فعلاً لكن لم يجرح أحد .

تباطأت حركة قاربنا وبدا القلق على كاراكوى .

كـان المحـاربون الذين يطـاردوننا الآن قـد صاروا نحو ثلاثين . بينمـا صـار البحـر غاضبًا .. تلك الميـاه الثـائرة التى يصعب التجديف فيها . لو بلغ هؤلاء القوم قاربنا لتحدد مصيرنا ..

بالنسبة لهؤلاء المتوحشين يعتبر العوم طبيعة ثانية .. ليس كبلادنا المتحضرة هم يتعاملون مع الماء كأنهم على اليابسة . كانوا يندفعون بسرعة مرعبة .

عندما بلغنا لسان الخليج كانوا يسدون الطريق أمامنا.. أخرج المجدفون مديهم بين الأسنان . دنا ماو ماو من القارب وبدا أنه سيمسك المجداف فى أى لحظة .

كنت أرتجف رعبًا مما أنا مقدم عليه .. تناولت حربة القارب وقذفته بها فضربته تحت الحنجرة .. وهوى للقاع . ثم ارتفع من جديد ليطفو ولن أنسى أبدًا التعبير الشنيع على وجهه .

اقترب وطنى آخر من القارب .. مد يده ليمسك لكن مكاكين المجتقين هوت تمزق ساعده .

وسرعان ما صرنا فى أمان بعيدًا عنهم .. هكذا تهاويت فاقد الوعى بين ذراعى كاراكوى .

فيما بعد عرفت كيف هربت ..

لقد كان هناك قبطان أسترالى فى الخليج نوكهيفا يبحث عن رجال يعملون على سفينته فلم يجد . هنا قابله كاراكوى وأخبره أن هناك رجلاً أمريكيًا أسيرًا لدى التايبى . عرف هذا من مارنوو التابوو الذى أحمل له فضل فرارى . جمع كاراكوى ستة رجال من الوطنيين التابوو واتجه بهم إلى وادى التايبى ، بينما انتظرت سفينة صيد الحيتان بالخارج .

وصـلت للسفينة جوليا ورفعـونى لسطحها . أثارت قصتى ومنظرى الغريب فضول الجميع . وقـد قضيت ثلاثة أشهر حتى استعدت صحتى .

الفصل الثالث والعشرون

قصــة توبى

عندما فارقنى صديقى كما حكيت من قبل ، كان عدد هائل من الوطنيين يصاحبه . وكان كثير منهم يحمل الفواكه للمبادلة مع السفن . وكانوا مندفعين جدًا يتصايحون فى حماسة ، حتى أنه كان يركض ركضًا ليلحق بهم .

بلغوا تقاطع طرق مهمًا فى الجزيرة ، فسمعوا صخبًا عاليًا .. تبين لهم أن هــذا هو ماو ماو الزعيم ذو العين الواحــدة . كان يدق برمحه على جذع شجرة أجوف .

دوت صيحة (هابار .. هابار !) .. فتوقف الجميع وراحوا يلوحون بالرماح ، والتقطوا الحجارة من مجرى الماء . جرى توبى إلى أحد الشباب يطلب أن يعطيه رمحًا لأنه غير مسلح ، لكن الشاب رفض . قال له أن الرمح مفيد للتايبى لكن الرجل الأبيض يجب أن يحارب بقبضته .

كــان التايبى يضحكون وقــد بدت عليهم الســعادة ، كان من أظرف الأشــياء فى الحيــاة أن يطيــر نحــوك رمح أو رمحان من الدغل .. ثم تفرق الرجال ليدخلوا الدغل .. بخطوات بطيئة حذرة ..

لم يحــب توبى هذه الطريقة . لو كانت هنــاك حــرب فلتقع الآن ..

لكن الرجال توغلوا وسط الأحراش الكثيفة بينما صرخاتهم تتعالى . لا أثر للعدو .. ولم يسقط أحد برغم أنهم كانوا يقذفون الحجارة على الأشجار كأنها المطر .

كان يمقت الهابار ويرغب فى الانتقام منهم بسبب إصابة رأسه القديمة . فجأة توقفت الصرخات وخرج رجال التايبى الذين تفرقوا .. خرجوا من الدغل ليجتمعوا من جديد وهم يضحكون . لقد كانت هــذه دعــابة !! مقلبًا !.. وشعر توبى بالغيظ لأنهم سخروا منه ..

ما ضايقه أكثر أن هذا استغرق وقتًا طويلاً جدًا لابد أنه ثمين . واستمر الزحف ببطء حتى شعر أنهم لن يبلغوا البحر أبدًا . وكأنما ليضايقوه أكثر جلسوا يتناولون طعامهم ويدخنون ..

لم يعد يتحمل فانطلق وحده إلى البحر ..

بعد قليـل وجـد أنهم يقفون فى مساحة تفصل بين الأحراش والبحر عنـد قاعدة جبـل الهابار . لم يكن هناك أى قارب فى الأفـق ..

لم ير سوى حشد من القوم يلتفون حول شخص.. لما دنا أكثر رأى أنه غريب يقف وسطهم ويتكلم فى حماسة . كان بحارًا فى حالة رثة اسمه جيمى ، رأيته يعيش فى بيت ملك نوكوهيفا . أدركت أن صدره موشوم وأنه يحمل رمحًا فى يده . كان يجيد لغة القوم لذا كان الفرنسيون يستعملونه كمترجم .

دنا منه توبى وحياه فالتف الأهالى حولهما . حكى له جيمى إنه يعرف قصة هروبنا وإقامتنا عند التايبى . قال لنا إنهم كلفوه بزيارة التايبى والعودة بنا . بدا هذا غريبًا لتوبى لأنه لم يسمع قط عن شخص زار التايبى بشكل اجتماعى .

قال إنه يجمع الفاكهة مـن هنـا ، وسوف يتم تكويمها على الشط بانتظار قدوم القوارب لتنقلها .

سأل توبى عما إذا كان يرغب فى ترك الجزيرة .. هناك سفينة فى الخليج تريد رجالاً . قال توبى :

— « لا .. لا أستطيع ترك الجزيرة من دون رفيقى .. فلنذهب لنحضره معنا » .

— « لن يقدر على عبور الجبال .. اتركه حيث هو وسوف نعود له بالقوارب » .

لم يكن جيمى خائفًا من التايبى لأنه تابو عندهم . لكنه أدرك من مزاجهم وعصبيتهم أنهم لن يسمحوا له برؤيتى أو الوصول لى . وكان يرغب فى أن يترك القوم توبى يرحل وحده لسبب عرفناه فيما بعد .

قال لتوبى :

— « اليوم نذهب إلى نوكوهيفا برًا .. ثم غدًا نرجع لتومو عن طريق البحر .. وعدونى بأن يجلبوه للبحر غدًا » .

قال توبى فى قنوط :

— « لا .. لا .. لابد أن أبقى معه . لا يمكن أن أفر وحدى » .

قال البحار :

— « إذن لا أمل لكما .. سوف أرحل أنا وبعدها يعيدك القوم للوادى ولن ترى أنت ولا صاحبك البحر أبدًا » .

كان توبى يعانى خواطر مؤلمة .. ربما كان البحار يخدعه .. ربما كـــان الأهالى غير صادقين فى نيتهم جلبى غـــدًا .. كيف يتركنى وسط الأهالى ؟

كان جالسًا على طرف القارب مثال الحيرة والعجز عن إيجاد قرار .

قال جيمى :

ــ « الوقت تأخر .. لابد من أن نعود قبل الليل .. لن أبحر ليلاً خوفًا من الهابار .. »

قال توبى مثقل القلب :

ــ « لا جدوى .. سوف أثق بك » .

هكذا نهض توبى مع جيمى .. ولحق بهما شاب من التايبى يحمل خنزيرًا صغيرًا بين ذراعيه ، واتجهوا إلى الجبال . وقفت النساء يلوحن للراحلين ويبكين .

قال البحار المسن بعد ساعة من المشى الصامت :

ــ « ترى كم أنا تابوو هنا .. هذا الخنزير هدية لى من ماو ماو .. الرجـل الذى يحمله مـن التايبى ، لكن لو ظل جوارى

فسوف يظل سليمًا .. والأمر ينطبق عليك . سوف ترى صاحبك فى الصباح » .

كان الصعود سهلاً نسبيًا لأن الجبل كان جوار البحر ، لذا كان انحداره بسيطًا .

تأمل توبى وادى الهابار فلاحـظ أنه لا يمتد داخـل الساحل مسافة طويلة مثل وادى التايبى .... هذا سبب الخطأ الذى حدث لنا عند نزول الجزيرة . قال له جيمى وهما يجتازان منطقة الهابار :

ــ « أنا تابوو .. لذا لدى زوجة لدى كل قبيلة .. لدى هنا زوجتان » .

تجمع الهابار حول الرجلين ، وبدا واضحًا أنهم لا يندهشون لوجود الرجل الأبيض كما حدث فى وادى التايبى .

طلب من زوجتيه إعـداد الطعـام بسرعـة لأنه راحل إلى نوكوهيفا .. هكذا أعدتا بعض السمك والموز وخبز الفاكهة . كان توبى متوترًا وراح يبحث بعينه عن ذلك الرجل الذى ضربه فى رأسه من قبل .

راح الهابار يدعون الفتى من تايبى كى يجوب الوادى ، لكنه لم يكن واثقًا .. على أى مسافة تزول حماية التابوو فيفتكون به ؟ لهذا رفض بتاتًا .

عرض جيمى على توبى شرب الأرفا .. لكن هذا كان يعرف أثرها المخدر ، ورفض تمامًا . قال له جيمى إنهم سيخلطون بها مادة معينة تجعل تأثيرها أقل .

هكذا جــرب توبى شــرب الأرفــا .. وهكذا زال اكتئابه على الفور . وعلى الفور بدأ التحرك نحو نوكهيفا .. واستطاع البحار أن ينتزع من توبى وعــدًا بستة جنيهــات أسبانية لو أوصله لسفينة .

عنــدما وصــلوا إلى نوكهيفا استقبلهم عــدد من الوطنيين العاملين فى خدمة الملك مواوانا ..

حمل هؤلاء الرجال الأحمال بينما الشمس تنحدر نحو الغروب . شعر توبى عندما رأى البوارج واقفة فى الخليج أن كل ما مر به كان حلمًا .

فى بيت جيمى استقبلتهما زوجتا الرجل فى نوكهيفا .

بعد الطعام اتجها فى قارب لسفينة صيد حيتان تحتاج إلى بحارة .. رحب بهما القبطان . طلب توبى قاربًا مسلحًا للعودة إلى تايبى وإنقــاذى ، فهــو لا يثق بوعود جيمى ، لكن القبطان نصحه بالصبر .

قبل الشروق انطلق جيمى والتايبى فى قارب يقوده وطنيون من التابوو . لم يسمح جيمى لتوبى بالذهاب معهما حتى لا يفسد كل شىء .

عند الغروب عاد القارب وخيل لتوبى أنه يرانى .. ثم عرف أنه واهم . وزعم جيمى أنه لم يستطع العودة بى من عند التايبى ووعد بأنه سيعيد التجربة غدًا .

فى الصباح انطلق قارب فرنسى نحو الجزيرة من جديد فسر توبى لذلك ، وتمنى أن يرانى عند المساء . لم يكد القارب يبتعد حتى ظهر القبطان وأصدر أوامره للبحارة برفع الهلب !... سوف يبحرون الآن ..

توسل له تومى مرارًا بلا جدوى أن ينتظرنى .. لكن بالفعل أبحرت السفينة مبتعدة ..

قضى توبى أيامًا مؤرقة .. وراح يحلم بأننى أمامه ألومه على تركى على الجزيرة .

ترك توبى السفينة فى نيوزلندا .. وعاد للوطن بعد عامين من الترحال فى جزر الماركيز . ظل يحسبنى ميتًا طيلة الوقت .. وحسبته أنا كذلك . لكن الله شاء أن نلتقى من جديد .

مـذكـــــرة :

قضى المؤلف أكثر مـــن عامين فى البحار الجنوبية بعد هربه من الوادى . بعد العودة للوطن تم نشر هذه القصة . لم يخطر بباله أن هذه ستكون طريقته للعثــور على توبى الذى اعتبره المؤلف مفقودًا . هكذا وجدنا أن قصة هربه تشكل إضافة مهمة للمغامرة ولذا قمت بإضافتها . هكذا حكاها توبى نفسه .

هيرمان ملفيل

نيويورك 1846

تمت بحمد الله



مكتبة متكاملة
لأشهر الروايات العالمية

روايات عالمية للجيب

78





هيرمان ملفيل الأديب الأمريكى العظيم ، الذى جعلنا نجوب معه البحار الثائرة وسط الحيتان المفترسة فى (موبى ديك)، يقتادنا هذه المرة إلى تلك الجزر المنسية، وإلى رفقة قبيلة من أكلة لحوم البشر الشرسين فى (تايبى). هذا هو أنجح كتب هيرمان ملفيل ، وسوف تعرف السبب عندما تطالعه، والأهم أنه يحكى عن تجربة حقيقية مر بها المؤلف ؛ فلم يلعب فيه الخيال دورا.

العدد القادم

أحزان الشيطان

الثمن فى مصر 500
وما يعادله بالدولار الأمريكى
فى سائر الدول العربية والعالم



